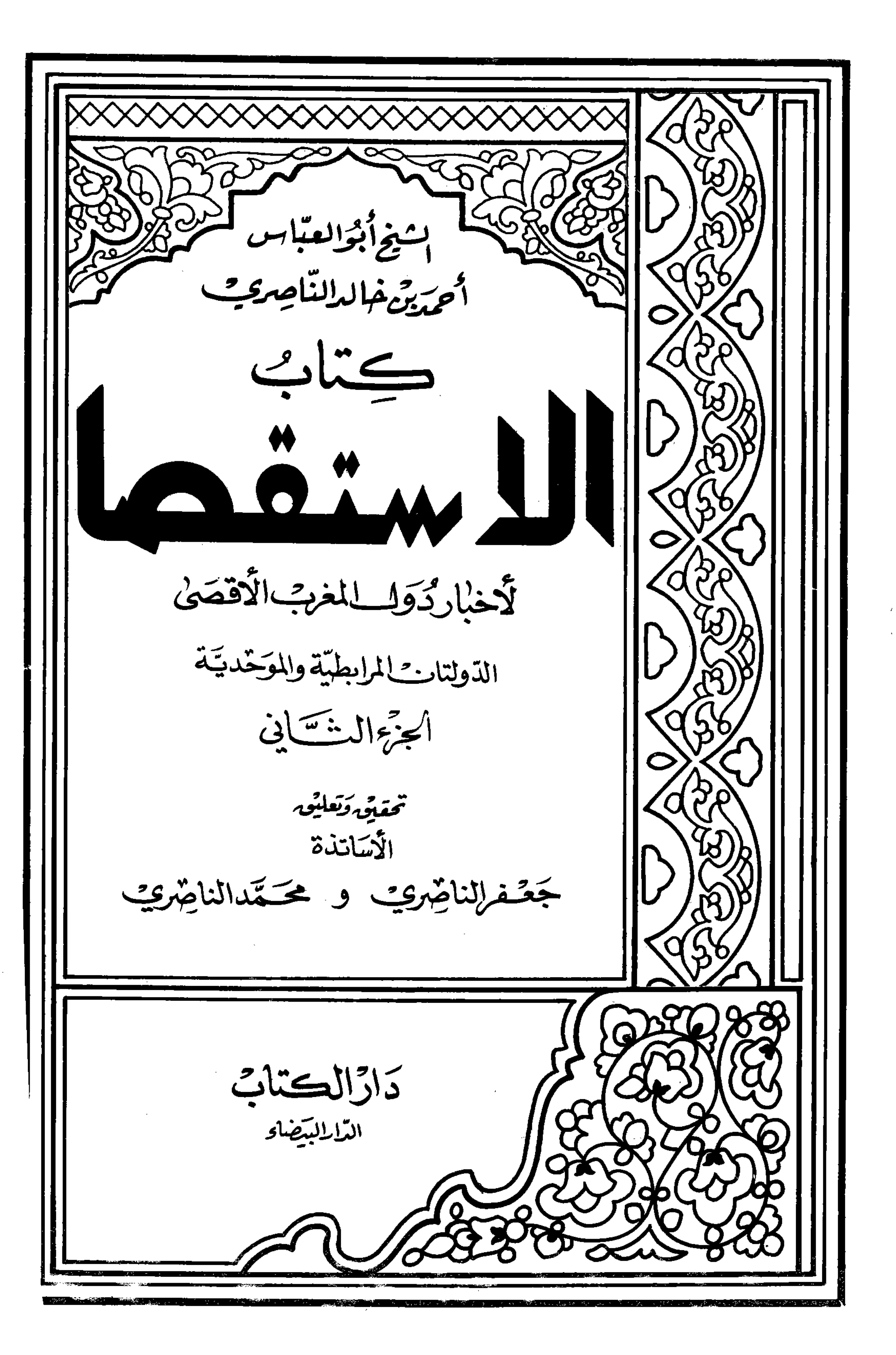


الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدولتان المرابطيّة والموحّديّة

الجزء الثّاني

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة المرابطية

الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر.

وتقدم لنا أن النسابين من العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير، خلفهم الملك إفريقيش بالمغرب، فاستحالت لغتهم إلى البربرية. والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين، منهم: لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر.

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما: دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والأخرى: دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس كما سيأتي.

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً، وفيهم قوماً لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم

يتلثمون، ولا يكشفون وجوههم أصلاً.

قال ابن خلكان: «اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل إن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم. وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت متلثمين في زي النساء. فإذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم. ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو».

وقال عز الدين ابن الأثير في كامله ما مثاله: وقيل إن سبب تلثمهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجل ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال إلى الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو خلقاً كثيراً وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

وفي ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب:

قوم لهم شرف العلا من حمير ... وإذا انتموا صنهاجة، فهم هم
لما حووا أحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم، فتلثموا

وقال ابن خلدون: «كان دين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة

المغرب، ولم يزالوا مستقرين بتلك المفالات الصحراوية حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق[1] لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمٰن بن معاوية إلى الأندلس، توارثه ملوك منهم من بني ورتنطيو[2] وطالت أعمارهم فيه إلى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم، ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً، واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت[3] اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايعوه، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته».

الخبر عن رياسة يحيى بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله

لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الكدالي، ـ وكدالة ولمتونة أخوان يجتمعان في أب واحد؛ وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط ـ فاستمر الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة

(1) راجع نص ابن خلدون في صحيفة 235 من الجزء الأول طبع الجزائر ففيه بعض تقديم وتأخير وزيادة بيان.

(2) الذي في نسخ ابن خلدون إنه ورتنطيق بالقاف.

(3) الذي في ابن خلدون صحيفة 236 طبع الجزائر جزء أول أنه تارشت ونسخة مطبعة مصر صحيفة 182 من الجزء السادس أنه ناشرت وفي القرطاس طبع فاس تارشتا أوتارشت.

وحربهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فاستخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج. فلما قضى حجه وزيارته قفل إلى بلاده، فمر في عوده بالقيروان فلقي بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسي، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فرآه الشيخ أبو عمران محبّاً في الخير فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق، فقال له الشيخ: «وما ينتحلون من المذاهب؟». قال: «إنهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم!» فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئاً! إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة! فقال له الشيخ: «وما يمنعك من تعلم العلم؟» فقال: «يا سيدي عدم وجود عالم بأرضي، وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلاً عن العلم! ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن، ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الإسلام، فلو رغبت في الثواب من الله تعال لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الأجر العظيم عند الله تعالى إذ كنت سبب هدايتهم» فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها، فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن إبراهيم: «إني أعرف ببلد نفيس[1] من أرض المصامدة فقيهاً حاذقاً ورعاً أخذ عني علماً كثيراً ـ واسمه واجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى ـ أكتب إليه كتاباً لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده» فكتب إليه الشيخ أبو عمران كتاباً يقول فيه: «أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو: يحيى بن إبراهيم

(1) بلد نفيس قرب أغمات كانت موجودة زمان الكبرى وقد ذكرها في مسالكه فراجع ما ذكره في حقها في صحيفة 160 طبع الجزائر وراج ما كتب عليها في الجزء الأول من هذه الطبعة صحيفة 153 تعليق عدد 2.

الكدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن، ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه: «ومنهم واجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس، فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به» اهـ.

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج في الكتاب، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، مشاركاً في العلوم، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان من أمره ما نقصه عليك.

الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

لما انتهى يحيى بن إبراهيم إلى بلاده ـ ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ـ تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبره، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع، وألفاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر، فقال لهم: «ليس هذا من السنة، وإنما سنة الإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة».

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك، فأطرحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف.

فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذٍ، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك، وقال له: إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما عليّ فيمن ضل من قومي. وكان قومه ليس عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون ما عداها من أركان الإسلام وشرائعه.

ثم قال يحيى بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: «هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟» قال: «وما هو؟» قال: «إن هٰهنا جزيرة في البحر». قال ابن خلدون: «هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاحاً في المصيف يخاض بالأقدام وغمراً في الشتاء يعبر بالزوارق» قال يحيى بن إبراهيم: وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت». فقال عبد الله بن ياسين: «إن هذا الرأي حسن! فهلم بنا فلندخلها على اسم الله! فدخلها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، وابتنى عبد الله رابطة هناك، وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر؛ فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار! فكثر الواردون عليهم، والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل! وكان من أمرهم ما تسمعه عن قريب.

شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في ذلك

لما اجتمع إلى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم: المرابطين للزومهم رابطته.

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه، ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم: «معشر المرابطين، إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل! ولن يغلب ألف من قلة! وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده!» فقالوا له: «أيها الشيخ المبارك أمرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين! ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفعلنا!» فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين». فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته. فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأساً.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله! ودعاهم إلى التوبة! ورغبهم في الجنة، وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام! وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فساداً! فلما يئس منهم قال لأصحابه: «قد أبلغنا في الحجة،

وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله» فبدأ أولاً بقبيلة كدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه، وقتل منهم خلقاً كثيراً. وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، وحسنت حالهم، وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم، وكان ذلك في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم، وأذعنوا إلى الطاعة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

ثم سار إلى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة.

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا إلى التوبة والمبايعة، وأقروا له بالسمع والطاعة. فكان كل من أتاه تائباً منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الإسلام، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع إليه من ذلك.

ثم أخذ في اشتراء السلاح وأركاب الجيوش من ذلك المال، وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها.

ثم جمع أسلاب القتلى في تلك المغازي وجعلها فيئاً للمرابطين وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة، فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والاها، من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب، وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، وطار له ذكر في العالم، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس.

ثم توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي على أثر ذلك، وحكى ابن خلدون أن وفاة يحيى بن إبراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه في الجزيرة. والله أعلم.

الخبر عن رياسة يحيى بن عمرو بن تكلاكين اللمتوني

لما توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم.

وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى وديناً وصلاحاً، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وذلك لما أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق، فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتوني ـ وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويمنع، وعن رأيه يصدرون ـ فكان يحيى بن عمر يتولى النظر في أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر في أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والأعشار.

وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، واقفاً عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً: «قد وجب عليك أدب» قال يحيى: «فيماذا يا سيدي؟» قال: «لا أعرفك به حتى آخذه منك! فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطاً! ثم قال له: «إنما ضربتك لأنك باشرت القتال! واصطليت بنار الحرب بنفسك! وذلك خطأ منك! فإن الأمير لا يقاتل، وإنما يقف ويحرض الناس، ويقوي نفوسهم، فإن حياة الجند بحياة أميره، وهلاكه بهلاكه».

واستقام الأمر ليحيى بن عمر، وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد السودان ففتح كثيراً منها، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح.

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بني مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة أن انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوي، وأنه زحف إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة، وبرز إليه صاحبها أبو محمد المعتز بالله ـ آخر ملوك بني مدرار الصفرية ـ فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه إلى قرطبة ـ وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر ـ واستمر خزرون بن فلفل والياً على سجلماسة إلى أن هلك وولي بعده ابنه وانودين بن خزرون إلى أن هلك أيضاً وولي ابنه مسعود بن وانودين.

ولما انقرضت الدولة الأموية بالأندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف، استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما في يده، وعدم الوازع وتصرفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاساً وأعمالها من جور بني عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل، ونال أهل سجلماسة ودرعة من بني خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر.

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة ـ وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين في العالم ـ اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون إليهم في الوصول إلى بلادهم، ليطهروها مما هي في من المنكرات وشدة العسف من الأمراء، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي.

فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر. فقالوا: «أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك! فسر بنا على بركة الله» فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد.

وخرج بهم في عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة في جيش كثيف من المرابطين ـ وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمائة ـ فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور ـ وكانت ترعى في حمى حماه لها هنالك ـ فاكتسحها عبد الله بن ياسين. واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه، فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة. فكانت بينهما حرب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون.

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الإبل التي كان اكتسحها في درعة، فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الأربعة أخماس على المرابطين.

وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التي كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه. واستعمل على سجلماسة عاملاً من لمتونة وانصرف إلى الصحراء.

ثم توفي الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر في بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

الخبر عن رياسة أبي بكر بن عمر اللمتوني وفتح بلاد السوس

لما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقلده أمر الحرب والجهاد، ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة. فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني من السنة المذكورة.

وكان أبو بكر بن عمر رجلاً صالحاً ورعاً فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس. فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة[1] وتارودانت ـ قاعدة بلاد السوس ـ وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية[2] نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي ـ كان سقط إلى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعي بإفريقية ـ فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلاً بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق إلا ما في يدهم. فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقاً كثيراً ورجع من بقي منهم إلى مذهب السنة والجماعة.

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فيئاً وأظهر الله المرابطين على من عداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة وأخذ الزكوات والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة.

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، وبلاد رودة، ومدينة شفشاوة بالسيف. ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوه ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه. ثم ارتحل إلى مدينة أغمات

(1) مدينة ماسة ذكرها البكري في مسالكه فقال: إنها قرب السوس ويضاف إليها الوادي المنصب في المحيط صحيفة 161 طبع الجزائر.

(2) انظر بسط الكلام على البجليين في مسالك البكري صفحة 162 طبع الجزائر وراجع القرطاس أيضاً.

ـ وبها يومئذٍ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي ـ فنزل عليها وحاصرها حصاراً شديداً.

ولما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلاً هو وجميع حشمه إلى تادلا فاستجار ببني يفرن ملوك سلا وتادلا.

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند، ثم خرج إلى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله.

وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق النفزاوية. قال ابن خلدون: وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمٰن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت إسحاق المذكورة إلى أن كان من أمرها ما نذكره.

ثم تقدم عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بأن بساحل تامسنا قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم.

ولنذكر هنا كلاماً ملخصاً في برغواطة ودولتهم ثم نرجع إلى ما نحن بصدده فنقول: اختلف الناس في نسب برغواطة هؤلاء إلى أي شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول في متنبئهم صالح بن طريف البرغواطي: إنه يهودي الأصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط ـ حصن من عمل شدونة من بلاد الأندلس ـ ثم رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي. واشتغل بالسحر وجمع منه فنوناً وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا. فوجد بها قبائل جهالاً من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنير نجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآناً ـ حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى ـ فكان يقال لمن تبعه ودخل في دينه برباطي ثم عربته العرب فقالوا برغواطي فسموا برغواطة.

قال ابن خلدون: «وهذا من الأغاليط البينة!» وصحح أن القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار وغير ذلك. والتحقيق أن برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لأتباعه الديانة التي أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغري كبير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال إنه ادعى النبوة أيضاً وشرع لقومه الشرائع! ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة، وقام بأمره ابنه صالح بن طريف المذكور فعفت مخارقه على مخارق أبيه! وكان أولاً من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحناه قبل في ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي على المغرب.

ثم خرج صالح بن طريف إلى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم وأوصى بشريعته إلى ابنه إلياس بن صالح. ولم يزل إلياس مظهراً للإسلام مصراً على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهراً بالعفاف والزهد إلى أن هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضي خمسين سنة من ولايته. ثم ولي من بعده ابنه يونس بن إلياس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم، وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال إنه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات (وهو حجر عال نابت وسط الطريق) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفساً.

قال زمور بن صالح[1]: ثم رحل يونس بن إلياس إلى المشرق وحج،

(1) الذي في النسخة المطبوعة بمدينة الجزائر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام صفحة 164 مسالك البكري.

ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده. وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لأربع وأربعين سنة من ملكه. وانتقل الأمر عن بنيه إلى غيرهم من قرابته، فولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إلى شيء منها سعيد بن هشام المصمودي في أبيات منها قوله:

وهذي أمة هلكوا وضلوا ... وعاروا، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبي أبو غفير ... فأخزى الله أم الكاذبينا
سيعلم أهل تامسنا إذا ما ... أتوا يوم القيامة مفظعينا
هنالك يونس وبنو أبيه ... يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين ـ لأنهم يبيحون في ديانتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ـ وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر. وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه.

ثم ولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبي غفير فاقتفى سننه، وكان كبير الدعوة مهيباً عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يعتم أحد في بلاده إلا الغرباء، وكان حافظاً للجار وافياً للعهد، وتوفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره.

وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار ـ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ـ فسار سيرة آبائه وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه، ودانت له قبائل المغرب قال زمور بن صالح: «كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم».

وقد كان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة وغيرهم.

ولما زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب زحفه

المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا إلى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم إلى جهاد برغواطة، فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث بسبيهم إلى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة.

ثم حاربتهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة، فعظم أثره فيهم بالقتل والسبي.

ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيري بن عطية المغراوي صاحب فاس.

وكان لأبي الكمال تميم بن زيري اليفرني فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه وذلك أعوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبياً وقتلاً.

ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا، فأخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم وأنهم مجوس أهل ضلالة وكفر، وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة. وقيل له إن برغواطة قبائل كثيرة وأخلاط شتى، اجتمعوا في أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبيء الكذاب، واستمر حالهم على الضلالة والكفر إلى الآن. فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار إليهم في جيوش المرابطين ـ والأمير يومئذٍ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام، مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي ـ مهدي المرابطين ـ فكان فيها شهادته رحمه الله.

ولما حضرته الوفاة قال لهم: «يا معشر المرابطين إني ميت من يومي

هذا لا محالة! وإنكم في بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده» في كلام غير هذا.

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم، وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، ودفن بموضع يعرف بكريفلة، وبني على قبره مسجد وهو مشهور بها إلى الآن.

وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع في المطعم والمشرب إنما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم.

وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عدداً من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها. ومن حسن سياسته أنه أقام في صنهاجة السنة والجماعة حتى أنه ألزمهم أن من فاتته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط.

ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان فنفد ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «احفروا تحت مصلاي هذا!» فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الأرض عذباً بادراً! فشربوا واستقوا وملؤوا أوعيتهم. ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائماً من يوم دخل بلاد صنهاجة إلى أن توفي رحمه الله.

واستمر الأمير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله بن ياسين، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه إياه ودفنه أن زحف إلى برغواطة مصمماً في حربهم، متوكلاً على الله في جهادهم، فأثخن فيهم قتلاً وسبياً حتى تفرقوا في المكامن والغياض، واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلى مدينة أغمات.

غزوة أبي بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه إياها

لما استقر الأمير أبو بكر بن عمر بأغمات، أقام بها إلى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وخرج غازياً بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة. ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقاً كثيراً من بني يفرن وخربها فلم تعمر بعد إلى الآن.

وكان تخريبه إياها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم رجع إلى مدينة أغمات.

عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك

كان الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة، فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء، ووقوع الخلاف بين أهلها.

وكان الأمير أبو بكر رجلاً متورعاً فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً، وهو قادر على كفهم، ولم ير أنه في سعة من ذلك وهو متولي أمرهم ومسؤول عنهم، فعزم على الخروج إلى بلاد الصحراء ليصلح أمرها، ويقيم رسم الجهاد بها.

ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه إياها: «يا

زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها! وإني مطلقك، فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب!» فطلقها، ثم سافر عن أغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا، حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياماً حتى أصلح أحوالها ثم سافر إلى الصحراء.

ونقل ابن خلكان عن كتاب «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» في سبب رجوع الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال: «كان أبو بكر بن عمر رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية. وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط. فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر سمع أن عجوزاً في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت: ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين! ورجع إلى بلاده الجنوبية!» اهـ.

وكان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشاً كثيفاً وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة.

وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضاً بالمغرب، واستولى على أكثر بلاده. فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله. ويقال إنه كان مضمراً لعزله وتولية غيره. فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت إسحاق ـ وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر ـ فقالت له: «إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء. فإذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه! وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك،

فإنه بأرض صحراء كل ما جلب إليه من هنا فهو مستطرف لديه».

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد، وسلم عليه وهو راكب سلاماً مختصراً. ولم ينزل له ولا تأدب معه الأدب المعتاد! فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له: «يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش؟» قال: «أستعين بها على من خالفني!» فارتاب أبو بكر به ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال: «ما هذه الإبل الموقرة؟» قال: «أيها الأمير إني قد جئتك بكل ما معي من مال وأثاث وطعام وإدام لتستعيّن به على بلاد الصحراء!» فازداد أبو بكر تعرفاً من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر فقال له يا بن عم: «انزل أوصيك» فنزلا معاً وجلسا فقال أبو بكر: «إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله تعالى في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنه. والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم» ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواظباً على الجهاد في كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما عزم الأمير أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني، فعقد له على بلاد المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة والبربر. واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه

وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته. فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفاً من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبي بكر اللمتوني، ومحمد بن تميم الكدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة وبنى يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به. ثم سار هو في أثرهم يتقرى المغرب بلداً بلداً ويتتبع أهله قبيلة قبيلة، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم، وقوم يفرون بين يديه، وقوم يلقون إليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب. ثم سار حتى دخل مدينة أغمات. ولما استقر بها تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية ـ التي كانت تحت أبي بكر بن عمر ـ فكانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفاً. وهكذا كان أمرها في كل ما تحاوله رحمها الله.

ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الأثير في كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال: «كان حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم في بلاده، ويصدر عن رأيهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، من ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته ـ وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده ـ فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته: «يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا

تصل إليه!؟» ثم أرسله إلى زوجته فتركته في خيمة ثلاثة أيام، ثم أمرت بأن يحمل إليه في كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت له: «ما أكلت في هذه الثلاثة الأيام؟» قال: «طعاماً واحداً» فقالت له: «كل النساء شيء واحد!» وأمرت له بمال وكسوة وسرحته إلى حال سبيله وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة.

بناء مدينة مراكش

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جداً ورسخت قدمه في الملك وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها بحشمه وجنده، وتكون حصناً له ولأرباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة. وقال صاحب المعرب: «كان ملكاً لعجوز منهم» ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبنى مسجداً لصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سوراً». وقال أبو الخطاب بن دحية في كتاب النبراس: «إن موضع مدينة مراكش كان مزرعة لأهل نفيس فاشتراه يوسف منهم بماله الذي خرج به من الصحراء». وفي كتاب المعرب: «إن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ـ ومعناه بلغة المصامدة امش مسرعاً ـ وكان ذلك الموضع مكمناً للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الألف كاف مكسورة ثم شين معجمة[1] ويقال كان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة. وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ

(1) كذا ضبطها صاحب كشف الظنون الإمام القسطنطيني رحمه الله.

منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها».

وقال ابن خلدون: «اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعاً» وفي القرطاس: «لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه لله تعالى. قال: «والذي بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفاً من جامع الكتبيين منها، ويعرف اليوم بالسجينة. ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آباراً فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنو بها» قالوا: ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها إلى أن توفي يوسف بن تاشفين رحمه الله وولي بعده ابنه علي بن يوسف ومضى معظم دولته، فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة يقال كان ذلك بإشارة القاضي أبي الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور. فإنه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عندما نبغ محمد بن تومرت مهدي الموحدين بجبال المصامدة.

وكانت مدة البناء ثمانية أشهر، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار، وبنى علي بن يوسف أيضاً الجامع الأعظم المنسوب إليه اليوم والمنار الذي عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى.

ورأيت في كتاب ابن عبد العظيم الأزموري الموضوع في مناقب بني أمغار رضي الله عنهم أن أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني لما عزم على إدارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير في ذلك فمنهم من ثبطه، ومنهم من ندبه إليه، وكان من جملة من ندبه القاضي أبو الوليد بن رشد. ثم شاور أبا عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار ـ صاحب عين

الفطر ـ فأشار ببنائه وبعث له من ماله الحلال وأمره أن يجعله في صندوق صائر البناء ويتولى الإنفاق في ذلك رجل فاضل فقبل السلطان إشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء.

ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل في تشييدها وبالغ في تنميق مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه في محله إن شاء الله.

ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم.

ثم لما جاءت دولة بني مرين من بعدهم اتخذوا كرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء.

ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنو بها قصر البديع المشهور.

ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكناسة الزيتون، واحتفل في بنائها احتفالاً عظيماً على ما نذكره إن شاء الله.

ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسياً لمملكتهم إلى الآن.

وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الأولياء ومدافن الصلحاء الكبار والأئمة الأخيار، حتى قال الوزير ابن الخطيب في مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش: «هي تربة الولي وحضرة الملك الأولى» وعبر عنها أبو العباس المقري في نفح الطيب (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان، وطوارق الحدثان.

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد، واستكثر القواد، وفتح كثيراً من البلاد، واتخذ الطبول والبنود؛ ورتب العمال وكتب العهود، وجعل في جيشه الأغزاز[1] والرماة كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب، فكمل له من الجيش في تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرماة، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصداً مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدراتة ومغيلة وبهلوله ومديونة وغيرهم في خلق عظيم، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف.

ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وقال ابن خلدون: «إن يوسف بن تاشفين نازل أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن تولي اليحفشي ـ وبنو يحفش بطن من زناتة ـ وكان أبوه تولي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناسة لأنه كان عدو المعنصر المغراوي صاحب فاس فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس وجمع إليه معنصر ففض جموعه» اهـ والله أعلم.

ثم أقام يوسف على فاس أياماً فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو. فدخلها من يومه عنوة، وقتل ملوكها أولاد

---

(1) الأغزاز جمع غز جنس من الترك كما في القاموس، وهم هنا قسم من جيش المرتزقة وقد عدهم صاحب صبح الأعشى من جملة طوائف الأجناد انظر صحيفة 482 منه في الجزء الثالث المطبوع بالمطبعة الأميرية بمصر سنة 1332 هـ.

مسعود بن وانودين المغراوي صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها.

ثم رجع يوسف إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فأقام بها أياماً واستعمل عليها عاملاً من لمتونة وخرج إلى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذٍ الحاجب سكوت البرغواطي من موالي بني حمود.

ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوي إلى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها.

وكان مهدي بن يوسف الكزنائي ـ صاحب بلاد مكناسة ـ قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب، فجمع مهدي بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس فعاجله في أنجاد مغراوة وقبائل زناتة وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة.

ولما قتل مهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة إلى ابن تاشفين بالخبر وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم.

ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغارات والنهب، واشتد عليه الحصار وعدمت الأقوات بفاس، فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة وبنى يفرن وخرج إليهم لإحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة، فقتل تميم وجماعة من عشيرته، وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية المكناسي، فجمع قبائل زناتة وخرج بهم إلى المرابطين فالتقى معهم على وادي صيفير، فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم.

واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها

وخلف جيشاً من المرابطين لحصارها فأقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحاً سنة خمس وستين وأربعمائة.

ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار إلى بني مراسن - وأميرهم يومئذٍ يعلى بن يوسف - فغزاهم وقتل منهم خلق وفتح بلادهم. ثم سار إلى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات. ثم سار منها إلى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة.

وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف! وفر من بقي منهم إلى أحواز تلمسان. وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفي هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه في أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبي زرع ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:84].

فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيرهما مصراً واحداً وحصنها وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها إلى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم خرج إلى بلاد ملوية ففتح حصون وطاط.

وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه

وكساهم ووصلهم بالأموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها ـ وهم في صحبته ـ فصلح على يده الكثير من أمور الناس.

وفي سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة فتح يوسف جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة وقتل منهم خلقاً كثيراً. وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاثة وفازاز، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش وأغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره.

فتح سبتة[1] وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالأندلس

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الإدريسيين من لدن دولة الأمويين. ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة ولم يزل أمر المدينتين إلى نظر هؤلاء النواب واحداً بعد واحد إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي.

وكان عبداً لشيخ حداد من موالي الحموديين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم، ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعيه إلى أن استقل بالأمر واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبتة، وأطاعته قبائل غمارة، واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن

(1) لم يذكر المؤلف داخل هذه الترجمة فتح سبتة وساقه في الترجمة الموالية لها.

تاشفين على بلاد المغرب، ونازل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم، فهم بالأجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي.

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت.

وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية قد كتب إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله: «لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وسبتة!» فراجعه ابن عباد يشير عليه بأن يسير هو إليها بعساكره في البر فينازلها ويبعث ابن عباد قطائعه في البحر فينازلوها أيضاً حتى يتملكها. فأخذ يوسف في محاولة ذلك وصرف عزمه إليه، ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز إليها قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفاً من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ـ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ـ وقال: «والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبداً!» فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون إلى طنجة فدخلوها واستولوا عليها.

ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف.

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن تيلكان اللمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط فسار إليها في عشرين ألفاً من المرابطين. وكان بتلمسان يومئذٍ العباس بن بختي[1] من ولد

---

(1) الذي في النسخة الصحيحة من ابن خلدون المطبوعة بالجزائر سنة 1847 ميلادية في صحيفة 242 من الجزء الأول أنه يحيى بالياء والحاء المهملة.

يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوي فدخلوا المغرب الأوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى ابن الأمير العباس بن بختى فقتلوه وانكفؤوا راجعين إلى يوسف بن تاشفين فألفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غيّر يوسف بن تاشفين السكة في جميع عمله وكتب عليها اسمه.

وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بني يزناسن وما والاها. ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختي المغراوي، وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسوفي في عساكر المرابطين فصارت ثغراً لمملكته، واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته - وهو اسم المحلة بلسان البربر - ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر وانكفأ راجعاً إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والإعانة فأجابه يوسف بقوله: «إذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدي في جهاد العدو!» وكان الفنش قد تحرك في هذه السنة في جيوش لا تحصى من الإفرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الأندلس شقاً يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها ونزل على إشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب وكذلك فعل في شدونة وأحوازها، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته!» ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا

يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل إليه أميرها المستعين بن هود مالاً عظيماً فلم يقبله منه وقال: «المال والبلاد لي!» وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشاً لحصارها والتضييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذي النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة، فكان ذلك من أقوى الأسباب المحركة لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد.

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الأندلس

لما انقرضت دولة بني أمية بالأندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد، وقتال منهم عريض مديد، وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الأندلس مملكتها، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتشر　　　وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك!　　　وصاح فوق كل غصن ديك!

فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين، وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها وإغراء بعضهم بعض، وكان منهم ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس؛ وابن ذي النون بطليطلة؛ وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية؛ وغير هؤلاء وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الأذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره إياها سبع سنين، ثم حصاره سرقسطة.

فلما رأى رؤساء الأندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين، واستطالته على ثغور المسلمين، أجمع رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين فكاتبه أهل الأندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيس العدو عن مخنقهم، ويكونوا معه يداً واحدة عليه.

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز فنازلها برّاً وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي وجيء به إلى المعز أسيراً فقتله صبراً، وبعث بكتاب الفتح إلى أبيه وهو بفاس ينظر في أمر الجهاد ويستعد له، ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصداً نحوها ليعبر منها إلى الأندلس.

ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد، فلقيه مقبلاً ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة، وقال ابن خلدون: «لقيه بفاس، فأخبره بحال الأندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحصار كل يوم». فقال له يوسف: «ارجع إلى بلادك وخذ في أمرك فإني على أثرك» فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده، ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب، فشرع في إجازتها إلى الأندلس.

ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجادهم وصلحائهم، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره» فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت. وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال، منتصف ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس.

واتصل الخبر بالأذفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين، وبعث إلى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية، فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر وصمد إلى ابن تاشفين والمسلمين. هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما.

وساقها ابن الأثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميري مساقاً غير هذا. ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول: لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار العريضة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس فهم بذلك وأخذ في إنشاء السفن والمراكب ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته، وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم، والملثمين عن جنوبهم. وكانت الفرنج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس، والطعنات التي تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم.

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظلم يوسف ويحذرونه خوفاً على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره، وكان فزعهم في ذلك إلى المعتمد ابن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته ـ وقد تحققوا أنه يقصدهم ـ يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت

طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس يقول:

«أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك! فإنك بالمحل الذي لا يجوز أن نسبق فيه إلى مكرمة! وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت! والسلام..» فوصله الكتاب مع تحف وهدايا ـ وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي لكنه كان ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد ـ وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له: «أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون! وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من ورائهم من الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب» فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: «فما ترى أنت؟» فقال: «أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بأنه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره! فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته! وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم! وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته! واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: «من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد، !» فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: «أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرأ عليّ كتابك» فكتب الكاتب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تحية من سالمكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة! فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا آخاءنا بإصلاح آخائكم! والله ولي التوفيق لنا لكم

والسلام». فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط مما لا يكون إلا في بلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك وقرؤوا كتابه فرحوا به وعظموه واعتزوا بولايته، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين، ويكونوا من أعوانه عليه، فتأتى ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له وكفاه حربهم.

وقال ابن الأثير في الكامل: «كان المعتمد ابن عباد أعظم ملوك الأندلس وممتلكاً لأكبر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كل سنة فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته، فردها عليه ولم يقبلها منه، ثم أرسل إليه يتهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة وتملكها من يده إلا أن يسلم إليه جميع الحصون التي في الجبل ويبقي السهل للمسلمين. وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس، فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر القواد أن يقتل كل منهم من عنده، وأحضر الرسول فصفعه حتى برزت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فلما بلغه هذا الخبر رجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويستعد استعداداً غير الذي سبق. وعاد المعتمد إلى إشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها.

وقال ابن عبد المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار ما ملخصه: «إن المعتمد ابن عباد أخر في سنة من السنين الضريبة التي كان يدفعها للأذفونش عن وقتها، ثم أرسلها إليه بعد، فغضب الأذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن في التجني، حتى طلب أن تأتي زوجته إلى الجامع الأعظم بقرطبة فتلد فيه إذ كانت حاملاً، وكان بالجانب الغربي من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه الأطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها

بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمٰن الناصر لدين الله وأبدع في تشييدها وتنجيدها؛ وتتردد المرأة مع ذلك إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول في ذلك يهودياً وكان وزيراً للأذفونش، فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودي وأغلظ له في القول ولسعه بكلمة آسفته! فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة!.

ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك! وقال للفقهاء: «إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين خيراً».

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية وليحاصرنه في قصره، ثم زحف في عسكرين أحدهما عليه والآخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الأعظم بإشبيلية قبالة قصر ابن عباد وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه: «كثر بطول مقامي في مجلسي هذا عليّ الذباب، واشتد الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي!» فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك إن شاء الله!» فلما وصلت رسالة ابن عباد الأذفونش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال، وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على إجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك، وانفتحت لهم أبواب الآمال.

وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه، فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه، وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له: «الملك عقيم! والسيفان لا يجتمعان في غمد!». فأجابهم ابن عباد بكلمته

التي صارت مثلاً: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير!» ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره وقال لمن لامه: «يا قوم إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى الأذفونش، ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك. وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله! وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله! فإذا كانت حالة الشك فيهما عارضة، فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه!؟» فحينئذٍ أقصر أصحابه عن لومه.

ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكل على الله عمر بن الأفطس وصاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجي، أن يبعث إليه كل منهما قاضي حضرته ففعلا، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن أدهم ـ وكان أعقل أهل زمانه ـ فلما اجتمع عند ابن عباد القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى الوزير ما لا بد منه من إبرام العقود السلطانية.

وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم.

ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم، وجرت بينه وبينهم مراوضات، ثم انصرفوا إلى مرسلهم.

ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها،

فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوعة وتواصوا بهم خيراً» هذا مساق صاحب الروض المعطار.

وقال ابن الأثير: «لما رجع المعتمد ابن عباد إلى إشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عباد لليهودي، ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا: «هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت» وساروا إلى القاضي أبي بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: «ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها! وقد رأينا رأياً نعرضه عليك» قال: «ما هو؟» قالوا: «نكتب إلى عرب إفريقية ونشترط لهم إذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله!» قال: «أخاف إذا وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية! ويتركوا الفرنج ويبدؤوا بنا! والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا!» قالوا له: «فكاتب يوسف بن تاشفين وارغب إليه في العبور إلينا أو يرسل بعض قواده».

وبينما هم يتفاوضون إذ قدم عليهم ابن عباد - وهم في ذلك - فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه. فقال له ابن عباد: «أنت رسولي إليه في ذلك!» فامتنع القاضي - وإنما أراد أن يبرىء نفسه من تهمة تلحقه - فألح عليه المعتمد، فعبر القاضي البحر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش - وكان أمير المسلمين يومئذٍ بمدينة سبتة - ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار؛ فاجتمع بالمعتمد ابن عباد بإشبيلية.

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده، وسار من طليطلة وكتب إلى أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك. فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتباً مفلقاً ـ فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: «هذا كتاب طويل» وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره (الذي يكون ستراه!) وأرسله إليه فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بلي برجل له دهاء وعزم».

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم رأتها قط، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ورغائها، وكان ليوسف في عبورها رأي مصيب، فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها».

وقدم يوسف بن تاشفين بن يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب: «بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا، فقد عبرناه إليك: وقد جمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال!» فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه، وأقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه.

ولنرجع إلى كلام صاحب الروض المعطار قال رحمه الله: «فلما عبر يوسف وجميع جيوشه البحر إلى الخضراء نهض إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش وأميراً بعد أمير وقبيلاً بعد قبيل. وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية.

وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس من وجوه أصحابه، فلما أتى محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز إليه

يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً إليه. وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد إلى جهته، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين.

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أعان، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا.

وكان الأذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح! فاستنفر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الأذفونش إلى ابن عباد: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً: أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم!» وقال لخاصته وأهل مشورته: «إني رأيت أني إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين جدرها - وربما كانت الدائرة عليّ - يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة! ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!».

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!» فالمقلل يقول: «المختارون أربعون ألف دارع

ولكل واحد أتباع!» وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله.

واتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار! ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيلاً وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلاً مسلماً عالماً بتفسير الرؤيا فقصها عليه، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه. فقال: «تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:1] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:8 ـ 10] وذلك يقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه!» فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له: «بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين: «هذا الملك هالك وكل من معه!» وذكرالحديث: «ثلاث مهلكات وفيه وإعجاب المرء بنفسه!».

ثم خرج الأذفونش إلى بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضاً وتأخر ابن عباد لبعض مهماته، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته، وسار وهو ينشد متفائلاً ببيت سائر، مجيزاً له بأبيات من شعره:

لا بـد مـن فـرج قـريـب ... يـأتيـك بـالـعجـب الـعجيـب
غـزو عـلـيـك مـبـارك ... سـيـعـود بـالـفـتـح الـقـريـب
لله سـعـدك إنـه ... نـكـس عـلـى ديـن الـصـلـيـب
لا بـد مـن يـوم يـكـو ... ن لـه أخـا يـوم الـقـلـيـب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود. ثم جاءهم الخبر بشخوص الأذفونش إليهم».

وقال ابن أبي زرع: «ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصداً

نحو الأذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة ـ وكان بطلاً من الأبطال ـ في عشرة آلاف فارس من المرابطين، بعد أن قدم أمامه المعتمد ابن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية، وابن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس وغيرهم، فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الأندلس واحدة، ومحلة المرابطين أخرى، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته، فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة، فأقاموا بها ثلاثاً وكتب منها يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وكان جواب الأذفونش ما تقدم، ثم ارتحل يوسف وارتحل الأذفونش حتى نزلا معاً بالقرب من بطليوس، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة[1] وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزاً يشرب منه هؤلاء وهؤلاء، فأقاموا ثلاثة أيام، والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما نذكره.

ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد الأذفونش ـ إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ـ وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لا يخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات، ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت.

ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار.

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ـ وهو يوم الأربعاء ـ فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الأذفونش ورجع إلى

---

(1) ويسميه المسيحيون ساكر الياس هكذا: «Sacralias».

أعمال المكر والخديعة. فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم. ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: «غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت!» فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار. ويقال إن الأذفونش واعدهم ليوم الاثنين وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد.

وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، ـ وكان في محله ابن عباد ـ فرحاً مسروراً يقول: «إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة» فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب. وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر العدو الكافر، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: «استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: «ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد. وإنما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده. ولا أراه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة» فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر فقال له: «قل له: إني سائر إليك إن شاء الله» وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله. ومال الأذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس. واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبراً لم يعهد مثله، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم ـ وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد ـ وأثخن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً يكنى: أبا هاشم ـ وكان قد تركه بإشبيلية عليلاً ـ فقال:

أبا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذلك الأوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة ـ وكان بطلاً شهماً، فنفس بمجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك ـ وطبوله قد ملأت أصواتها الجو ـ فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده فبادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر. ثم صدقوا جميعاً الحملة فزلزلت الأرض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً.

ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره. قالوا: وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذٍ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت.

وعلى سياق ابن خلكان: «إن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء. وكان الموعد بالمناجزة يوم السبت فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ـ والروم في أثرها والناس على طمأنينة ـ فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر في العساكر، فماجت بأهلها، ورجفت الأرض، وصارت الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو، فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيداً خلفها. وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنه وهي لا يرقع، ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين، فتقدم أمير المسلمين وأحدقت به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها وقتلوا حاميتها، وضربت الطبول، وزعقت البوقات الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق، وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فقصدوه فأفرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها. ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند، ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على عنانه! وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به فأثبته في فخذه. فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه. وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أقفاءهم ـ والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ـ إلى أن لحقوا بربوة لجؤوا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية، واستولى

المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم».

وقال صاحب الروض المعطار: لجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس ما منهم إلا مكلوم. وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابه، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه.

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له: «ها هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك!».

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتاباً مضمونه: «كتابي هذا إليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب، وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتيان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فللّه الحمد على جميل صنعه ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت، لكنها قرحت بعد ذلك فللّه الحمد والمنة والسلام».

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما رحم الله الجميع.

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم. وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف فعف عنها وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم. فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال، فبعث منها إلى إشبيلية عشرة آلاف رأس، وإلى قرطبة مثل ذلك، وإلى بلنسية مثلها، وإلى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث إلى بلاد العدوة أربعين ألف رأس، فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم».

قال ابن أبي زرع: «وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك، وأظهر الله تعالى الإسلام وأعز أهله وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم بن المعز الصنهاجي صاحب إفريقية، فعمت المفرحات في جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات، وأعتقوا الرقاب شكراً لله تعالى.

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم يسمع إلا نواح الثكالى عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفاً وغماً، وراح إلى أمه الهاوية، ولم يخلف إلا بنتاً واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطليطلة.

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبي بكر بن يوسف ـ وكان قد تركه مريضاً بسبتة ـ فاغتم لذلك وانصرف راجعاً إلى العدوة، وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فعزم عليه يوسف في الرجوع إلى منزله، وكانت جراحاته قد تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب.

وكان أمير المسلمين عند مجيئه إلى بلاد الأندلس وقصده ملاقاة الأذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس. قاله ابن خلكان.

ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضي عنه.

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس وهنّىء بالفتح، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: «حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ قارىء: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: 40] فقلت: «بعداً لي ولشعري! والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به». اهـ.

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين في حال أمير المسلمين في الجهاد، فقيل إنه لم يرجع إلى بلاد الأندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو. وقيل إنه عاد إليها ثانياً وثالثاً وعلى هذا القول فاختلفوا في زمان ذلك العود وتاريخه. والله تعالى أعلم.

بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبيرهم ابن عباد

اعلم أن أقوال المؤرخين اختلفت في أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض إلى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبي بكر اللمتوني بأرض الأندلس وخلف معه جيشاً برسم غزو الفرنج، فاستراح سير بن أبي بكر أياماً قلائل ثم دخل بلاد الأذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل في بلاد العدو وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما استولى عليه. وأرسل إلى السلطان يوسف

بجميع ما حصله وكتب إليه يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب إليه «أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور منهم، ولا تتعرض لابن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميراً من عسكرك» فامتثل سير بن أبي بكر أمره واستنزلهم واحداً بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه في سلكهم على ما نذكره.

وقال ابن أبي زرع: «لما كانت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد. قال: وسبب جوازه أن الأذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد إلى حصن لبيط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة، وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس، إذ كان السبب في جواز أمير المسلمين إلى الأندلس فكانوا ينزلون من الحصن في الخيل والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم في كل يوم. فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعاً. ثم عبر البحر إلى العدوة مستنفراً لأمير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادي سبو ـ وهذه المعمورة هي المسماة اليوم بالمهدية، من أحواز سلا ـ فشكا إليه حصن لبيط وما يلقاه المسلمون من أهله، فوعده الجواز إليه، فرجع المعتمد.

وسار يوسف في أثره، فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، وقال لهم: «الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط» ثم تحرك يوسف من الخضراء، وذلك في ربيع الأول من السنة المذكورة، فنزل على حصن لبيط ـ وفي القاموس لبطيط

كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الأندلسية، ولعله هو هذا ـ فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب إليه من أمراء الأندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية، وابن عباد صاحب إشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا في القتال والتضييق عليه.

وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوماً واحداً إلى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن، فشكا المعتمد إلى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه إلى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء.

ولما علم الأذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد إلى حماية الحصن في أمم لا تحصى، فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه إلى ناحية لورقة، ثم إلى المرية ثم جاز إلى العدوة وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد عندما دعاهم إلى الجهاد ومنازلة الحصن.

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور، أقبل الأذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته، وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية، وعاد إلى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصبابة المنفلتة.

وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية، فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند إخلائه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثالث برسم الجهاد؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها الأذفونش وشن الغارات بأطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها

وخرب عمرانها وقتل وسبى ولم يأته من ملوك الأندلس أحد، ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك!.

ولما قفل من غزو طليطلة عمد إلى غرناطة فنازلها. وكان صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس قد صالح الأذفونش وظاهره على أمير المسلمين، وبعث إليه بمال واشتغل بتحصين بلده. وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره:

يبني على نفسه سفاهاً | كأنه دودة الحرير
دعوه يبني، فسوف يدري | إذا أتت قدرة القدير

ولما انتهى أمير المسلمين إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين. ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الأمان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها، وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة إلى مراكش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الإنفاق إلى أن ماتا بها.

ولما خلع أمير المسلمين بني باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف إليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقبض عنه. ويقال: إن ابن عباد طمع في غرناطة وأن أمير المسلمين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه، ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسملين وعبر إلى العدوة في رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة.

ولما انتهى إلى مراكش ولى على الأندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتوني وفوض إليه جميع أمورها كلها ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سير بن أبي بكر نحو إشبيلية، وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به يخرج إليه ويتلقاه على بعد ويحمل إليه الضيافات على العادة فلم يفعل، وتحصن منه ولم يلتفت إليه! فراسله سير بن أبي بكر أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعة

أمير المسلمين، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير إلى حصاره وقتاله. وبعث بعض قواده إلى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذٍ المأمون بن المعتمد ابن عباد، فنازلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الأربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة وإشبيلية. ثم ارتحل سير بن أبي بكر إلى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة. فاشتد الأمر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث إلى الأذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده بإعطاء البلاد ويذل الطارف والتلاد إن هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار! فبعث إليه الأذفونش قائده القومس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل.

فلما علم سير بقدوم الفرنج إليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة، وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمتوني وبعثه للقاء الفرنج. فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين، ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم إلا القليل.

ثم شد سير بن أبي بكر في الحصار والتضييق على إشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته! فقيدهم وحملهم في السفين بنهر إشبيلية وبعث بهم إلى أمير المسلمين بمراكش. فأمر أمير المسلمين بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات فسجن بها واستمر في السجن إلى أن مات به لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة إشبيلية يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقي من بلاد الأندلس إلى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر. وهذه الأخبار نقلناها عن ابن أبي زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لأنه موضوع بالقصد الأول لأخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره.

وفي تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر. قال: «أجاز يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم. وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة» وقال أيضاً: «إن الفقهاء بالأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال. حتى إذا رجع عن بلادهم رجعوا إلى حالهم. فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم! فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التي بينهما. وبعث جيشاً إلى المرية، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض إفريقية. وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته. فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وسارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما.

فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميماً عن مالقة، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب. فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه، وفشت السعايات بينهما. ونهض أمير المسلمين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر على الأندلس وأجازه. فانتهى إليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لأمير المسلمين والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله. ثم صمد إلى إشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية. فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن

عنه شيئاً. وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده. واقتحم المرابطون إشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه من أغمات سنة تسعين وأربعمائة.

ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكه مدينة بطليوس.

ورثاهم الأديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التي يقول في أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وهي قصيدة غريبة في منوالها وموضوعها، عدد فيها أهل النكبات، ومن عثر به الزمان بما يبكي منه الجماد، وتستشرف لسماعه الأنجاد والوهاد.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث إلى الأندلس سنة تسعين وأربعمائة، وزحف إليه الطاغية. فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتوني، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين، وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر، فافتتحوا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وأغزى الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فأثخن فيها، وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع.

وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن. واستولى أمير المسلمين على العدوتين معاً واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مراراً والله غالب على أمره». فهذا كلام ابن خلدون في سياقه هذه الأخبار.

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه إما في كونه كان بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم.

واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان، وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت!.

وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق، قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الأموال في مظاهرته إياهم على أمير المسلمين، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه. والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنّه وكرمه.

بقية أخبار أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان: «كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازماً، سائساً للأمور، ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم» قال: «وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم إلى

التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فجاء إليه الخبر بوفاته، فرجع عن ذلك العزم» قال: «وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته».

وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت.

وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين. ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة. وعاش سبعين سنة، ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله.

وقال ابن خلدون: «تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين، وخاطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي ـ وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول في أيدي الناس. وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة» اهـ كلام ابن خلدون.

وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله ـ مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكته منه ـ لتكون ولايته مستندة إلى الشرع. وهذا من ورعه رحمه الله.

وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة، حتى لا يشاركه في لقبه! لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة، والخليفة من قريش كما في الحديث فافهم.

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضاً ما نقله غير واحد من الأئمة، أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدده من الجهاد، وأنه كاتب إلى قاضي المرية أبي عبد الله محمد بن يحيى ـ عرف بابن البراء ـ يأمره بفرض معونة المرية، ويرسل بها إليه، فامتنع محمد بن يحيى من فرضها، وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه. فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه: «الحمد لله الذي إليه مآبنا، وعليه حسابنا. وبعد، فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ووزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يشك في عدله. فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك. وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم. فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذٍ تجب معونته، والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته». فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله، ولم يعد عليه في ذلك قولاً، والأعمال بالنيات.

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة

باسمه، ونقش على الدينار: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وكتب على الدائرة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] وكتب على الصفحة الأخرى: «عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي» وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته.

وكان ملكه قد انتهى إلى مدينة أفراغة من قاصية شرق الأندلس، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من بحر الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طولاً. وفي العرض ما يقرب من ذلك.

وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مزغنة إلى طنجة، إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان.

ولم ير في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار، وجزيات أهل الذمة، وأخماس الغنائم.

وقد جبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبيه أحد قبله. يقال إنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعون ربعاً من مطبوع الذهب.

وكان رحمه الله زاهداً في زينة الدنيا وزهرتها، ورعاً متقشفاً، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره. ومأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك، لم ينقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا. وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية. وكان يسير في أعماله بنفسه، فيتفقد أحوال الرعية في كل سنة. وكان محبّاً للفقهاء وأهل العلم والفضل. مكرماً لهم، صادراً عن رأيهم، يجري عليهم أرزاقهم من بيت المال. وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعاً، كثير الحياء جامعاً لخصال الخير. رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم، بايع الناس ابنه علي بن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه إليه، وتسمى بأمير المسلمين.

وكان سنه يوم بويع ثلاثاً وعشرين سنة. وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأنه صادف البلاد ساكنة، والأموال وافرة، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه في جميع أموره واهتدى بهديه.

خروج يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه علي بن يوسف بثوبه، وخرج إلى المرابطين ـ ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف فبايعه. ثم قال للمرابطين: «قوموا فبايعوا أمير المسلمين». فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة، وبايعه الفقهاء وأشياخ القبائل، فتمت له البيعة بمراكش.

ثم كتب إلى سائر بلاد المغرب والأندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده، ويأمرهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع البلاد، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة إلا أهل مدينة فاس. فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف كان أميراً عليها من قبل جده يوسف. فلما انتهى إليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه، فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة، فزحف إليه علي بن يوسف من

مراكش، حتى إذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبي بكر على نفسه، وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه. فأسلم فاساً لعمه. وخرج منها خائفاً يترقب. فدخلها علي بن يوسف يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسمائة. واستقام له الأمر.

وقيل إن علي بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب إلى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلاف، ويدعوه إلى الدخول في الطاعة كما دخل الناس. وكتب كتاباً آخر إلى أشياخ البلد يدعوهم فيه إلى بيعته، ويتهددهم ويتوعدهم، فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأه، جمع أهل البلد واستشارهم في المقاتلة والحصار، فلم يوافقوه. فلما يئس منهم خرج فاراً إلى مزدلي بن تيلكان ـ وكان عاملاً على تلمسان ـ فلقيه مزدلي بوادي ملوية مقبلاً برسم البيعة لعلي بن يوسف. فأعلمه يحيى بما كان من شأنه، فضمن له مزدلي عن عمه العفو والصفح، فرجع معه حتى إذا وصلا إلى فاس، دخل مزدلي على أمير المسلمين علي بن يوسف، ونزل يحيى مستخفياً بحومة وادي شردوع.

ولما اجتمع مزدلي بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه إكراماً وقبولاً أعلمه بخبر يحيى، وما ضمن له من العفو، فأجابه إلى ذلك وعفا عنه وأمنه! ثم جاء يحيى فبايعه، وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميروقة بشرق الأندلس أو ينصرف إلى بلاد الصحراء. فاختار الصحراء فانصرف إليها، ثم سافر منها إلى الحجاز فحج البيت ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون في جملته، ويكون سكناه معه بحضرة مراكش، فأذن له في ذلك فسكنها مدة، ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فثقفه، وبعث به إلى الجزيرة الخضراء فاستمر بها إلى أن مات.

أخبار الولاة بالمغرب والأندلس

لما بويع أمير المسلمين علي بن يوسف عزل عن قرطبة الأمير أبا عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني، وولى مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبي زلفى، فغزا طليطلة، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلاً ذريعاً بباب القنطرة أخذهم على غرة.

وفي سنة إحدى وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب، وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج، فأقام والياً على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر، ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الأندلس.

ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الأندلس، فكانت له على النصارى وقعة أفليج، وذلك أنه خرج غازياً بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن أفليج - وبه جمع عظيم من الفرنج - فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن، فأرز النصارى إلى القصبة فتحصنوا بها، وانتهى خبرهم إلى الفنش فاستعد للخروج لإغاثتهم، فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضاً منه، لأن تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين، وسانجة ابن ملك النصارى، فامتثل إشارتها، وبعث ولده سانجة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم. فسار حتى إذا دنا من أفليج أخبر تميم بن يوسف بمقدمه، فعزم على الإفراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج. فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد ابن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام. وشجعوه وهونوا عليه أمرهم. فقالوا: «إنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس، وبيننا وبينهم مسافة». فرجع إلى رأيهم، فلم يكن إلا عشي ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج في ألوف

كثيرة، فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلاً ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو، وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين، وقتل ولد الفنش، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفاً ونيف. ودخل المسلمون أفليج بالسيف عنوة، واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله. واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولده وأخذ بلده وهلاك جنده، فمرض ومات أسفاً لعشرين يوماً من الوقعة. وكتب تميم بن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح.

واعلم أنه يقال في ملوك الجلالقة الذين نسميهم اليوم الإصبنيول الأذفونش، ويقال الفنش. فقال ابن خلكان: «الأذفونش بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو بعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لأكبر ملوك الإفرنج وهو صاحب طليطلة». وقال ابن خلدون: «بنو أذفونش هم ولد أذفونش بن بطرة أول ملوك الجلالقة» اهـ. وأما قولهم الفنش فهو اسم علم لبعض ملوكهم، وليس لقباً لجميعهم.

وكان محمد بن الحاج رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقاً فاحشاً بالغارات والنهب، فخرج في غزاة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبى، وكان معه جماعة من قواد لمتونة، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير، وأخذ هو على برية تقرب من بلاد المسلمين. وكان أكثر الناس مع المغنم. وكان طريق البرية الذي أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك إلا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته. فلما توسطه محمد بن الحاج وأخذته الأوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له في جهة من تلك الجهات. فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة، إذ لم يجد منفذاً يخلص منه. فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نفر يسير بحيلة أعملها.

واتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين فآسفه موت أبي عبد الله بن الحاج وولى مكانه أبا بكر بن إبراهيم بن تافلوت، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ - وكان عاملاً على مرسية - فوصل إليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما، وهو بمرسية. ثم خرج بجيش مرسية إلى بلنسية، فاجتمع إليه من كان بها من الجند. ثم زحف بهم إلى برشلونة فنازلها، وأقام عليها عشرين يوماً، فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وخرب قراها، فأتاه ابن رذمير من قرابة الأذفونش في جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وبلاد أربونة فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرنج، واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمائة رحمهم الله تعالى.

أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف في الجهاد وجوازه الأول إلى بلاد الأندلس

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة في جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس، فانتهى إلى قرطبة فأقام بها شهراً، ثم خرج منها غازياً إلى مدينة طلايوت، ففتحها عنوة بالسيف. وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصناً، وفتح مجريط[1] ووادي الحجارة، وانتهى إلى طليطلة فحاصرها شهراً وانتسف ما حولها، وبالغ في النكاية، ثم قفل إلى قرطبة بعد أن دوخ البلاد.

وفي سنة أربع وخمسمائة فتح الأمير سير بن أبي بكر شنترين،

---

(1) هي المسماة اليوم مادريد دار ملك الإصبنيول. مؤلف.

وبطليوس، ويابورة، وبرتغال، وأشبونة؛ وغير ذلك من بلاد غرب الأندلس. وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الأمير سير بن أبي بكر بإشبيلية ودفن بها، وولي إشبيلية عوضاً منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشر وخمسمائة.

وفي سنة سبع المذكورة غزا الأمير مزدلي طليطلة وأعمالها، فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية. واتصل الخبر بالبرهانس - كبير الفرنج - فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم، فصمد القائد مزدلي للقائه، ففر أمامه ليلاً، وعاد مزدلي إلى قرطبة ظافراً غانماً.

ثم كانت له في الفرنج وقائع أخرى، إلى أن توفي رحمه الله غازياً ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة. فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلي، فأقام والياً عليها ثلاثة أشهر، ثم توفي شهيداً في بعض غزواته أيضاً.

استيلاء العدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الأندلس بيد بني هود الجذاميين، تغلبوا عليها في صدر المائة الخامسة أيام الطوائف، وتوارثوها إلى أن كان منهم أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله، فزحف إليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسمائة، فخرج إليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة، فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة منهم المستعين بن هود.

ثم لما كانت سنة اثنتي عشرة - وصاحب سرقسطة يومئذٍ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة - زحف ابن رذمير

إليها وزحف الفنش أيضاً في أمم من النصرانية إلى لاردة من بلاد الجوف فنازلها. واتصل الخبر بأمير المسلمين، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس يأمرهم بالمسير إلى أخيه تميم بن يوسف ـ وكان يومئذٍ والياً على شرق الأندلس ـ فيسيرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة، فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين ـ صاحب قرطبة ـ بعساكرهما، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء الأندلس، فصمد نحو لاردة، وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاسئاً صاغراً، بعد أن بذل جهده في حصارها، وأفقد من جيوشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس، ورجع تميم إلى بلنسية.

ولما رأى ابن رذمير ذلك بعث إلى طوائف الإفرنج يستصرخهم على سرقسطة، فأتوا في أمم كالنمل حتى نازلها معه وشرعوا في القتال، وصنعوا أبراجاً من خشب تجري على بركات وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وقوي طمعهم فيها، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الأقوات وهلك أكثر الناس جوعاً، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل، فإن لم يأتيهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه إليه، فعاهدهم على ذلك، فتم الأجل ولم يأتهم أحد، فدفعوا إليه المدينة وخرجوا إلى مرسية وبلنسية، وذلك سنة اثنتي عشرة وخمسمائة. وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدوة جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منه ونفذ حكم الله فيها.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الأندلس، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد شرق الأندلس أمنع منها، وألح بالغارات على بلاد الجوف، فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش، فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وضبط الثغور، وهو جوازه الثاني

فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر، فوصل بجيوشه إلى قرطبة، ونزل خارجها وأتته وفود الأندلس للسلام عليه، فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلداً بلداً، فعرفوه بما كان.

وعزل القاضي أبا الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ويقال إنما عزل ابن رشد لأنه استعفاه، وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل.

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة، وسار في بلاد الفرنج يقتل ويسبي ويقطع الثمار، ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد غرب الأندلس، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة.

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد أمير المسلمين إلى بلاد العدوة، بعد أن ولى أخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الأندلس، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشرين وخمسمائة.

ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الجهاد

لما توفي الأمير تميم بن يوسف في التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الأندلس ابنه تاشفين بن علي بن يوسف، ما عدا الجزائر الشرقية فإنه قد عقد عليها لمحمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، فعبر الأمير تاشفين البحر إلى الأندلس في خمسة آلاف من الجند، وبعث إلى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازياً طليطلة، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها.

وفي السنة المذكورة، أعني سنة عشرين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين

النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلاً ذريعاً، وفتح ثلاثين حصناً من حصون غرب الأندلس، وكتب بالفتح إلى أبيه.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية، وأفنى منهم خلقاً كثيراً بالسيف.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعدها دخل الأمير تاشفين مدينة كركى بالسيف، فلم يبق بها بشراً.

وفي سنة اثنتين وثلاثين بعدها جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى المغرب، بعد أن غزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة، وحمل معه من سبيها إلى العدوة ستة آلاف سبية، فانتهى إلى مراكش، وخرج أمير المسلمين للقائه في زي عظيم وسرور كبير.

وفي سنة ثلاث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كانت وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله. وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة. قال ابن خلكان: «كان أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين رجلاً حليماً، وقوراً، صالحاً، عادلاً؛ منقاداً إلى الحق والعلماء؛ تجبى إليه الأموال من البلاد، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه».

قلت قد طاف به في آخر دولته أعظم مكروه. وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت إبطه بجبال المصامدة كما يأتي خبره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين اللمتوني

لما توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم ولي بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن علي بعهد من أبيه إليه، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين معاً كما كانوا في عهد أبيه.

وكان أمر عبد المؤمن بن علي يومئذٍ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن. قال ابن الخطيب: «كان تاشفين بن علي قد استخلفه أبوه على بلاد الأندلس، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين، فلم ينجح أمره، بخلاف ما عوده الله في بلاد الأندلس من النصر، لما قضاه الله من الإدبار على دولتهم».

ولما خرج عبد المؤمن بن علي من تينملل يريد فتح بلاد المغرب ـ وكان مسيره على طريق الجبال ـ سير أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضاً له على طريق السهل، وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها، وأفضى الأمر إلى ابنه تاشفين وهو في الحرب.

وقدم أهل مراكش إسحاق بن علي بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها، ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعاً لعبد المؤمن حتى انتهيا تلمسان، فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها، ونزل تاشفين بالبسيط مما يلي الصفصاف، ووصله هناك مدد صنهاجة، من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية، مع قائده طاهر بن كباب، لعصبية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام وشجاعة. فقال لجيش لمتونة: «إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي!» فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به

وبعسكره. وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم، وقتلوا عسكره في بعض الغارات، ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين، ونالوا منه أعظم النيل.

وفي القرطاس: «زحف المرابطون لقتال الموحدين فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا، وتعلقوا في الجبل لقتالهم، فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء».

ولما توالت هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة إلى وهران. فبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون، إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل، فأرسى قريباً من معسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى، فقدموا وهران، وفضوا جموع المرابطين الذين بها، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك، فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها، حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه، فتردى من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. ونجا فل العسكر إلى وهران، فانحصروا مع أهلها، حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأتى عليهم القتل رحمهم الله!.

وقال في القرطاس: «إن تاشفين بن علي خرج ذات ليلة ـ وهو بوهران ـ ليضرب في محلة الموحدين، فتكاثرت عليه الخيل والرجل، ففر أمامهم، وكان بجبل عال مشرف على البحر، فظن أن الأرض متصلة به، فأهوى من شاهق بإزاء رابطة وهران، فمات رحمه الله. وكان ذلك في ليلة مظلمة ممطرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفاً.

فوجد من الغد بإزاء البحر ميتاً، فاحتز رأسه وحمل إلى تينملل، فعلق على شجرة هناك. وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين في البيداء، لم يأو إلى ظل قط من يوم بويع إلى أن مات. وكانت مدة ولايته سنتين وشهراً ونصف شهر».

وقال ابن خلكان: «لما تيقن تاشفين بن علي أن دولتهم ستزول أتى مدينة وهران ـ وهي على البحر ـ وقصد أن يجعلها مقره، فإن غلب على الأمر ركب منها إلى الأندلس. وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه، وكان عبد المؤمن بجمعه في تاكرارت وهي وطنه. واتفق أنه أرسل منسراً من الخيل إلى وهران، فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ـ صاحب المهدي ـ فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك، فخرج راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو، فترامى الفرس نازياً لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في محل وعر، فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في ذلك الليل. وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران. وسمي ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح. ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل. ثم توجه إلى تلمسان، وهي مدينتان قديمة وحادثة بينهما شوط فرس. ثم توجه إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة. ثم قصد مراكش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين

وجماعة من مشايخ دولتهم. فقدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف نائباً عن أخيه تاشفين، فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ، وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج - وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم - وكانا مكتوفين، وإسحاق دون بلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما. ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة».

وقال ابن خلدون: «أقام الموحدون على مراكش تسعة أشهر، وأمير الملثمين يومئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أخيه، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبر ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وانمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على البلاد والله غالب على أمره».

قال ابن جنون: «كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر بالتثنية، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال. والقطاني لا تباع ولا تشترى، وكان ذلك مصحوباً بطول أيامهم، ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تسقيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر. وكثرت

الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة».

وأما الأحداث الواقعة في أيامهم ففي شهر ذي الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كسفت الشمس الكسوف الكلي الذي لم يعهد قبله مثله، وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال في اليوم الثامن والعشرين من الشهر.

وفي سنة اثنين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس مثلها بالمغرب، انهرمت منها الأبنية، ووقعت الصوامع والمنارات، ومات فيها خلق كثير تحت الهدم، ولم تزل الزلزلة تتعاقب في كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الأول إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن الأصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الأرجوزة.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفي الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطلاع.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي بقلعة حماد، صحب أبا الحسن اللخمي وغيره من المشايخ، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدي السلف الصالح وكان مجاب الدعوة. ولما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه، وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد رحمه الله، وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك. وحدث صاحب التشوف ـ وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات ـ بسنده عن أبي الحسن علي بن حرزهم

قال: لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الإحياء، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الأيمان فأفتى بأنها لا تلزم! وكانت إلى جنبه أسفار، فقال لي: «هذه الأسفار من كتاب الإحياء، وددت أني لم أنظر في عمري سواها!» وكان أبو الفضل قد أنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً. ومناقبه كثيرة رحمه الله.

قلت: لم يقع في دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهي إحراق كتاب الإحياء فإنه لما وصلت نسخه إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضي أبو القاسم بن حمدين، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبي حامد رضي الله عنه، وأعلموا السلطان بأمرها، وأفتوه بأنها يجب إحراقها، ولا تجوز قراءتها بحال.

وكان علي بن يوسف واقفاً ـ كأبيه ـ عند إشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جميع الأحكام إليهم، فلما أفتوه بإحراق كتاب الإحياء كتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الإحياء بحثاً أكيداً، ويحرق ما عثر عليه منها، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار! وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش، وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب! ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد رحمه الله وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم، فاستجيب له فيهم! فإن كان كذلك فتاريخ الإحراق يكون فيما بين الخمسمائة[1] والخمس بعدها، لأن بيعة علي بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة، ووفاة الشيخ أبي حامد

(1) وهو كذلك كما في المعيار ذكر أنه في سنة اثنتين أو ثلاث. مؤلف.

الغزالي رضي الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف كان متناهياً في الفضل والدين والزهد في الدنيا، منقطعاً إلى الخير، يقصده الناس ويألفونه فيحمدون صحبته، وسعى به إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة، واحتفل الناس لجنازته، وندم أمير المسلمين على ما كان منه له في حياته، وظهرت له كرامات رحمه الله، ودفن بقرب الجامع القديم الذي بوسط مراكش في روضة القاضي موسى بن أحمد الصنهاجي.

قلت: وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراكش عليه بناء حفيل.

وفي هذه السنة أيضاً أعني سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي أبو الحكم بن برجان، قال ابن خلكان: «هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن اللخمي عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون، وكان عبداً صالحاً وله تفسير القرآن الكريم. وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات.» اهـ.

وقال في التشوف: «لما أشخص أبو الحكم بن برجان[1] من قرطبة إلى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم: «والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي!» يعني أمير المسلمين علي بن يوسف، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا

(1) انظر السبب في تغريب هذين الزاهدين من المرية إلى مراكش في كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب صفحة 285، وفي المعجب للمراكشي صفحة 136، وفي لسان الميزان لابن حجر صفحة 247 الحزء الأول.

يصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء.

وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذٍ بمراكش، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: «إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقوله لك» فقال له: «مرني بما شئت أفعله!» فقال له: «تنادي في طرق مراكش وأسواقها: يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله» ففعل ما أمره، فبلغ ذلك أمير المسلمين، فقال: «من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله!».

قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة: «أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها» قال: «وهو الذي تقول له العامة سيدي أبو الرجال».

وكان الشيخ أبو ينور المشترائي موجوداً في هذه المدة، إلا أني لم أقف على تاريخ وفاته. قال في التشوف: «هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالي من مشتراية من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية، كبير الشأن من أهل الزهد والورع. حدثوا عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت إليه طعاماً يأكله فوقع في نفسه أن فيه نصيب الأيتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طاوياً. وجاءه رجل من أشياخ مشتراية فقال له: «إن عامل علي بن يوسف تهددني بالقتل والصلب وقد خرج من مراكش متوجهاً إلى دكالة» فقال له أبو ينور: «رده الله عنك» فسار إلى أن بقي بينه وبين قرية يليسكاون ـ وهي أمتى تسميها العامة بوسكاون ـ نصف يوم» فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه».

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثار القاضي أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الدولة الموحدية

الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة
وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

قال ابن خلدون: «كان للمصامدة في صدر الإسلام بجبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم، وكان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته. فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بإفريقية، حسبما هو مشهور ويأتي ذكره إن شاء الله تعالى. قال: «وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضاً أمغار، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، فبعضهم ينسبه سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، والله أعلم بحقيقة الأمر».

وكان أهل بيته أهل نسك ورباط، وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وشب المهدي قارئاً محبّاً للعلم. ثم ارتحل في طلبه إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذٍ دار علم، ثم لحق بالإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علماً واسعاً.

وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده. ولقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه.

قال ابن خلكان: «اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي، والكيا الهراسي، والطرطوشي وغيرهم، وحج وأقام بمكة مدة مديدة، وحصل قدراً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعاً ناسكاً، متقشفاً مخشوشناً مخلولقاً، كثير الإطراق، بساماً في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة. وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العرب والبربر، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعاً على الإلذاذ بذلك، متحملاً للأذى من الناس بسببه. وناله بمكة ـ شرفها الله ـ شيء من المكروه من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر، وبالغ في الإنكار فزادوا في أذاه وطردته الولاة. وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه، فينسب إلى الجنون، فخرج من مصر إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهاً إلى بلاده.

وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين، فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية من أرض إفريقية، وكان ملكها يومئذٍ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك في سنة خمس وخمسمائة. هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان. وقيل إن ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة. واجتيازه بمصر كان سنة إحدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب.

ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاؤوا إليه

وقرؤوا عليه كتباً من أصول الدين، فبلغ خبره الأمير يحيى، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء. فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء، فقال له: «أصلحك الله لرعيتك». ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي.

وقال ابن خلدون: «انطوى المهدي راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب في رأيهم إلى تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت. فبصر المهدي أهل المغرب في ذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد.

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها! واحتل بطرابلس الغرب معنياً بمذهبه ذلك مظهراً للنكير على علماء المغرب في عدولهم عنه. آخذاً نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك إذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله.

ولما دخل بجاية وبها يومئذٍ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين، فأغلظ له ولأتباعه بالنكير، وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفاً يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها، وبها يومئذٍ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز

ومنعة فآووه وأجاروه، وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة، وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه، فأعجب بعلمه وصرف عزمه إليه فاختص به وشمر للأخذ عنه.

وفي كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب: أن المهدي كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ـ يقال إنه عثر عليه عند الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه ـ وإنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس، وهو من ذرية رسول الله ﷺ، يدعو إلى الله، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ي ن م ل ل، ورأى فيه أيضاً: أن استقامة ذلك الأمر واستيلائه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن[1] ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة، فأوقع الله سبحانه في نفسه أنه القائم بهذا الأمر وأن أوانه قد أزف، فما كان محمد يمر بموضع إلا ويسأل عنه، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقده حليته.

وكانت حلية عبد المؤمن معه، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصفة التي معه فقال له محمد بن تومرت ـ وقد تجاوزه ـ: «ما اسمك يا شاب؟» فقال: «عبد المؤمن» فرجع إليه وقال له: «الله أكبر! أنت بغيتي»! ونظر في حليته فوافقت ما عنده، فقال له: «من أين أقبلت؟» قال: «من كومية» قال: «أين مقصدك؟» فقال: «المشرق» قال: «ما تبغي؟» قال:

---

(1) راجع في كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المطبوع بباريس على يد الأستاذ ليڤي بروڤانسال طبع كوتنير سنة 1928م. كيفية اتصال عبد المؤمن بالمهدي فقد بسط الكلام في ذلك، صفحة 55 من النص العربي وما بعدها.

«علماً وشرفاً» قال: «قد وجدت علماً وشرفاً وذكراً! اصحبني تنله!» فوافقه على ذلك، فألقى إليه محمد بأمره وأودعه سره.

قال ابن خلدون: «وارتحل المهدي إلى المغرب ـ وعبد المؤمن في جملته ـ ولحق بوانشريس فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بالبشير».

وقال ابن خلكان: «وكان جميلاً فصيحاً في لغتي العرب والبربر، ففاوضه المهدي فيما عزم عليه من القيام، فوافقه على ذلك أتم موافقة. وكان البشير ممن تهذب وقرأ فقهاً، فتذاكرا يوماً في كيفية الوصول إلى المطلوب، فقال المهدي للبشير: «أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلاً إلى المطلوب! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول» ففعل البشير ذلك.

ثم لحق المهدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها ـ وهو ابن صاحب الصلاة ـ ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره، وظن القاضي أن من العدل نزعه عن ذلك، فصمم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس، فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة. ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات، فثار إليه الغوغاء وأوجعوه ضرباً. ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذاً في شأنه، ولقي بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له في القول. ولقي ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه، ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته، وكانوا قد ملئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب

الأشعرية في تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير، فأغروا الأمير به فأحضره للمناظرة معهم، فكان له الفلج والظهور عليهم.

وقال ابن خلكان: «كان محمد المهدي قد استدنى أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أغماراً. وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير. ثم أنه رحل إلى أقصى المغرب، وتوجه في أصحابه إلى مراكش ـ وملكها يومئذٍ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ـ وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب[1] الأندلسي وكان عالماً صالحاً ـ زاد ابن خلدون عارفاً بالنجوم ـ فشرع محمد المهدي في الإنكار على جري عادته حتى أنكر على ابنة الملك، فبلغ خبره الملك، وأنه يتحدث في تغيير الدولة، فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره. فقال مالك بن وهيب: «نخاف من فتح باب يعسر علينا سده، والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد». فأجاب الملك إلى ذلك.

وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: «سلوا هذا الرجل ما يبغي منا» فانتدب له قاضي المرية ـ واسمه محمد بن أسود ـ فقال: «ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟» فقال له المهدي: «أما ما نقل عني فقد

---

(1) راجع ما قاله المقري فيه في نفح الطيب ج2 ص 925. وما ذكره أبو بكر الصنهاجي البيدن في كتابه أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين المطبوع بباريس سنة 1928م صفحة 68 وما بعدها من النص العربي.

قلته ولي من ورائه أقوال! وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة إنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به مع علمكم أن الحجة متوجهة عليه. فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهاراً! وتمشي الخنازير بين المسلمين! وتؤخذ أموال اليتامى؟» وعدد من ذلك شيئاً كثيراً. فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه.

ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم. فقال مالك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك ـ: «أيها الملك عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتها» فقال الملك: «ما هي؟» فقال: «إني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شره! وإن لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك!» فوافقه الملك على رأيه، فقال له وزيره: «يقبح بك أن تبكي من موعظة رجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد! وإن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه!» فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء.

وقال ابن خلدون: «كان مالك بن وهيب حزاء ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائناً بالمغرب في أمة من البربر، ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك، فقال مالك بن وهيب: «احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران والدرهم المربع». فطلبه علي بن يوسف ففقده، وسرح الخيالة في طلبه ففاتهم.

وحكى صاحب المعرب: «إن المهدي لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك! فقال: «أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت» اهـ كلامه.

فلما خرج المهدي وأصحابه من عند الملك قال لهم: «لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً» واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة. فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك. فقال عبد الحق: «هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم» فلما سمع المهدي بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر فقصده مع أصحابه.

وقال ابن خلدون: «لما لحق المهدي بأغمات غير المنكرات على عادته فأغرى به أهل أغمات علي بن يوسف وطيروا إليه بخبره. فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه في صحبته، فلحق أولاً بمسفيوة ثم بهنتاتة، ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ـ جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية ـ. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى هرغة فنزل على قومه، وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل، وأخذ يعلمهم المرشدة له في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره.

ثم داخل عامل لمتونة على السوس أناساً من هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم، فنقلوا المهدي إلى معقل من أشياعهم، وقتلوا من داخل في أمره، ودعوا المصامدة إلى مبايعته على التوحيد، وقتال المجسمة دونه، سنة خمس عشرة وخمسمائة. فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى، وأبو يحيى بن يكيت، ويوسف بن وانودين، وابن يغمور، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناكي،

ومحمد بن سليمان، وعمر بن تافراكين، وغيرهم. وأوعبت قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة.

ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان قبلها يلقب بالإمام، وكان يسمى أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول على التأويل وميلهم إلى التجسم.

ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آيت الخمسين. ثم زحف إليهم عامل لمتونة على السوس ـ وهم بمكانهم من هرغة ـ فاستجاشوا إخوانهم من هنتاتة وتينملل، فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت تلك باكورة الفتح، وكان المهدي يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابقت كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت إليهم عساكر لمتونه مرة بعد أخرى ففضوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحوالي منبع وادي نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له. هذا كلام ابن خلدون في سياقه هذا الخبر جئنا به مختصراً.

واقتضى كلام ابن خلكان أن ظهور المهدي ومبايعته لم تكن إلا بتينملل، فإنه قد عقب ما سبق له من أن الفقيه عبد الحق بن إبراهيم المصمودي أشار على المهدي بالمسير إلى تينملل، وأن المهدي لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم، فقاموا إليهم وأكرموهم، وتلقوهم بالترحاب، وأنزلوهم في أكرم منازلهم. وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه، فقيل له: إنهم سافروا، فسره ذلك وقال: «تخلصنا من الإثم بحبسهم!». ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره فجاؤوه من كل فج عميق، وتبركوا بزيارته. وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان، فإن

أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالفه أعرض عنه. وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة! وكان ذوو الحنكة والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه، ويخوفونهم سطوة السلطان، فكان لا يتم له مع ذلك أمر. وطالت المدة وخاف المهدي من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل، وخشي أن يطرق على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى استسلامه إليه والتخلي عنه، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً وألوان آبائهم السمرة والكحل! فسألهم عن سبب ذلك، فلم يجيبوه، فألزمهم الإجابة، فقالوا: «نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج، وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا وينزلون في بيوتنا ويخرجوننا عنها، ويختلون بمن فيها من النساء، فتأتي أولادنا على هذه الصفة! وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا» فقال المهدي: «والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح؟» فقالوا: «بالرغم لا بالرضى» فقال: «أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟» قالوا: «كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت» ثم قالوا: «من هو؟» قال: «هو ضيفكم!» يعني نفسه. فقالوا: «السمع والطاعة» وكانوا يغالون في تعظيمه، فأخذ عليهم العهود والمواثيق، واطمأن قلبه، ثم قال لهم: «استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح، فإذا جاؤوكم فأجروهم على عادتهم، وخلوا بينهم وبين النساء، وميلوا عليهم بالخمور، فإذا سكروا فآذنوني بهم!».

فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدي ـ وكان ذلك ليلاً ـ أعلموه بذلك، أمر بقتلهم كلهم، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد ـ كان خارج المنازل لحاجة له ـ فسمع التكبير عليهم والإيقاع بهم، فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل. ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات

محمد بن تومرت من يده، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به، فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادي تينملل، فإنه ضيق المسلك.

وعلم المهدي أنه لا بد من عسكر يصل إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم.

وتحقق المهدي ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له: «هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل في الطاعة». ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح ـ بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة ـ: «إني رأيت البارحة في منامي أنه نزل إليّ ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشواه علماً وحكمة وقرآناً!». فلما أصبح فعل ذلك ـ وهو فصل يطول شرحه ـ فانقاد له كل صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، فقال له محمد بن تومرت: «فعجل لنا بالبشرى في أنفسنا، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء» فقال له: «أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك» ثم قال: «اعرض أصحابك عليّ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار» وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت، وأبقى من أطاعه. وشرح ذلك يطول.

وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالفاً لهم، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن في الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وأنهم لا تطيب

نفوسهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم واغتنام أموالهم، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم. وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك.

وخلاصة الأمر: أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشاً عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل، وفيهم عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهراً، ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل.

وكان فيمن سلم عبد المؤمن، وقتل البشير وبلغ الخبر المهدي ـ وهو بالجبل ـ وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين: «إن النصر لهم، وإن العاقبة حميدة، فلا يضجروا وليعاودوا القتال، فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم، وإن الحرب سجال، وإنكم ستقوون ويضعفون، ويقلون وتكثرون، وأنتم في مبدأ أمر وهم في آخره» وأشباه هذه الوصايا وهي وصية طويلة اهـ كلام ابن خلكان.

وقال ابن خلدون: «لما كان شأن أبي محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدي على غزو لمتونة، فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة إليهم فلقوه بكبكب، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات فلقيتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبي بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعماشت، فهزمهم الموحدون وفل إبراهيم وجنده، واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجل إلا أربعمائة فارس. واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم: خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبياً. وفقد البشير واستحر القتل في هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء. وقيل للمهدي: «إن الموحدين قد هلكوا» فقال لهم: «ما فعل عبد المؤمن؟» قالوا: «هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء» فقال: «ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد»!.

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدي وكادت تأتي عليهم، ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره. وكان يقول: «مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلي الضوء، ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التي ينالون من فيء عدوهم بعدها وإنه يعطي الرجل على قدر ما أعد من الرباط إلى غير ذلك.

فهذا خبر المهدي مختصراً من ابن خلدون ممزوجاً بما نقله ابن خلكان من ذلك. وقد ساق ابن أبي زرع في القرطاس خبر المهدي هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم. فلنأت به وإن أدى إلى بعض التكرار زيادة في الإمتاع، وتحلية للأسماع، فنقول:

قال ابن أبي زرع ما ملخصه: «إن المهدي رحل إلى المشرق في طلب العلم ولقي مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علماً كثيراً، وحفظ جملة من حديث رسول الله ﷺ، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات.

وكان في جملة من لقي من العلماء الشيخ أحمد الغزالي رضي الله عنه، لازمه ثلاث سنين. وكان الشيخ أبو حامد كثيراً ما يشير إلى المهدي ويقول: «إنه لا بد أن يكون له شأن!» ونمى الخبر بذلك إلى المهدي فلم يزل يتقرب إلى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك. فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصداً بلاد المغرب غرة ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة، ولازم في طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اجتمع به عبد المؤمن بن علي فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر. ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش ـ وكانت له فصاحة وعليه مهابة ـ فأخذ يطعن على المرابطين وينسبهم إلى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن إليه أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وجرى منه

بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره، فاتصل خبره بعلي بن يوسف اللمتوني فأحضره وقال له: «ما هذا الذي بلغنا عنك؟» فقال: «إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فإنك المسؤول عنه. وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد وجب الله عليك إحياء السنة وإماتة البدعة. وقد عاب الله تعالى أمة تركوا النهي عن المنكر، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]. فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكراً. ثم أمر بإحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس، ثم قال أمير المسلمين: «اختبروا الرجل فإن كان عالماً اتبعناه وإلا أدبناه»، وكان المهدي فصيحاً لسناً ذا معرفة بالأصول والجدل، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع، فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه، فعدلوا عن المذاكرة إلى الممالأة، وأغروا به أمير المسلمين، وقالوا: «هذا رجل خارجي، وإن بقي بالمدينة أفسد عقائد أهلها!» فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد، فخرج إلى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها، وصار الطلبة يترددون إليه لأخذ العلم عنه، فكثر جمعه وأحبته العامة وعظموه.

وانتهى خبره إلى أمير المسلمين ثانياً، ونقل إليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له: «أيها الرجل اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد؟». فقال: «أيها الملك قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة إلى الجبانة واشتغلت بما يعنيني، فلا تسمع لأقوال المبطلين!» فتوعده أمير المسلمين وهم بالقبض عليه، ثم عصمه الله منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما انفصل المهدي عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به، وشرحوا له جلية أمره وما يدعو إليه. فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه،

وبعث إليه من يأتيه برأسه، فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعاً، حتى إذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:20] الآية. فسمعها المهدي وفطن لها فانسل من حينه وخرج حتى أتى تينملل فأقام بها، وذلك في شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون إلى دعوته والمصدقون بإمامته، وهم: «عبد المؤمن بن علي الكومي، وأبو محمد البشير الونشريسي، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وأبو يحيى بن يكيت الهنتاتي: وأبو حفص عمر بن علي آصناك، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تمار، وسليمان بن خلوف، وعاشر، فأقاموا بتينملل إلى رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه. فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس إلى بيعته، فبايعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة.

ولما كان الغد ـ وهو يوم السبت ـ خرج المهدي في أصحابه العشرة متقلدين السيوف، وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنه المهدي المنتظر، ودعاهم إلى بيعته، فبايعوه البيعة العامة، ثم بث دعاته في بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعته ويزرعون محبته في قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحري الحق وإظهار الكرامات، فانثال الناس عليه من كل جهة، وسمى أتباعه الموحدين، ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربري، وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور! وقال: «من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته!» فاستولت محبته على قلوبهم، وعظموه ظاهراً وباطناً، حتى كانوا يستغيثون به في شدائدهم، وينوهون باسمه على منابرهم، ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير، فلما علم أن ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيباً، وندبهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم وأموالهم، فانتدب الناس

لذلك وبايعوه على الموت، فانتخب منهم عشرة آلاف من أجناد الموحدين، وقدم عليهم أبا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا، فصمدوا إلى مدينة أغمات.

وانتهى الخبر إلى أمير المسلمين، فجهز لقتالهم جيشاً من الحشم والأجناد، فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم واتبعوهم حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها أياماً، ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة، وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة، وقسم المهدي الغنائم التي غنموها من عسكر المرابطين، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح:20] الآية. وانتشر ذكر المهدي بجميع أقطار المغرب والأندلس. وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التي غنموها. ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة، فأقام محاصراً لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويراوحها من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة.

ولما ضجر من مقامه هناك نهض إلى وادي نفيس، وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبى منهم فانقاد له أهل السهل والجبل. وبايعته كدميوة، ثم غزا بلاد ركراكة، فأخذهم بالدعاء إلى توحيد الله وشرائع دينه، وسار في بلاد المصامدة يقاتل من أبى ويسالم من أجاب ففتح بلاداً كثيرة، ودخل في دعوته عالم كثير من المصامدة، ورجع إلى تينملل فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس، ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة في ثلاثين ألفاً من الموحدين، فاجتمع على حربه أهل أغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون، فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وقسم المهدي أنفالهم بين الموحدين. ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه، وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهنتاتة وكنفيسة وغيرهم.

ثم عاد إلى تينملل فأقام بها ريثما استراح الناس. ثم ندبهم إلى غزو

مراكش وجهاد المرابطين، وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير، وخص عبد المؤمن بإمامة الصلاة، فساروا حتى انتهوا إلى أغمات، فلقيهم بها أبو بكر بن علي بن يوسف في جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه إلى مراكش وقتلوهم في كل طريق، وحصروا مراكش أياماً، ثم رجعوا إلى تينملل فخرج المهدي للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد. ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره إن شاء الله، فهذا سياق ابن أبي زرع لهذه الأخبار والله أعلم بالصواب.

بقية أخبار المهدي وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدي رجلاً ربعة، أسمر، عظيم الهمة، غائر العينين، حديد النظر، خفيف العارضين، له شامة سوداء على كتفه الأيمن، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم. وكان مع ذلك عالماً فقيهاً، راوياً للحديث، عارفاً بالأصول والجدل، فصيح اللسان، مقداماً على الأمور العظام، غير متوقف في سفك الدماء، يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه، وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان متيقظاً في أحواله ضابطاً لما ولي من سلطانه، أنشد صاحب كتاب المغرب في حقه:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

ثم قال:

«له قدم في الثرى وهمة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطون عقله وربطه، حتى دب إليهم دبيب القلق في الغسق، وترك في الدنيا دوياً. أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمه فيها غير مسلم، وكان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفاً بقليل سمن أو

زيت! ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا! ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بضم ذلك جميعه وإحراقه! وقال: «من كان يتبعني لأجل الدنيا فليس له عندي إلا ما رأى! ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله!» وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيباً منيع الحجاب إلا عند مظلمة، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه. وكان له شعر فمن ذلك قوله:

أخذت بأعضادهم إذ نؤوا وخلفك القوم إذ ودعو
فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتُسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيراً ما ينشد:

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضاً بقول أبي الطيب المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وبقوله أيضاً:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وبقوله أيضاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وينكر كتب الرأي والتقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزغة خارجية، وكان ينتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الكوائن الآتية، ورتب قومه ترتيباً غريباً. فمنهم أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين. وأهل سبعين، والطلبة، والحفاظ،

وأهل القبائل. فأهل الدار للامتهان والخدمة. وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقة للمباهاة، وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو. وكان يعلمهم أوجه العبادات في العادات».

قلت: من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم، فعدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلاً، فصفهم صفاً وقال لأولهم: «اسمك الحمد لله» وللثاني: «رب العالمين» وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة. ثم قال لهم: «لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة!» فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن. ذكره صاحب المعرب.

قالوا: وهو أول من أحدث «أصبح ولله الحمد» في أذان الصبح.

ومن جراءته وإقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال: «كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم، فاحتال المهدي بأن انتخب قوماً من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره»! وقال لهم: «إذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وأن ما دعا إليه الإمام المهدي هو الحق! فجدوا في جهاد عدوكم» وقال لهم: «إذا فعلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم عندي المنزلة العالية» وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته، ويهون عليهم ما لاقوا من القتل والجراحات بسببه. ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم: «أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق، فجدوا في قتال عدوكم فإنكم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله!» ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ونادى «يا معشر الشهداء ماذا لقيتم

من الله عز وجل؟» فقالوا: «قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!» فافتتن الناس وظنوا أن الموتى قد كلموهم! وحكوا ذلك لبقية إخوانهم، فازدادوا بصيرة في أمره وثباتاً على رأيه. والله أعلم بحقيقة الحال.

وفاة المهدي رحمه الله

كانت وفاة المهدي عقب وقعة البحيرة. قال ابن خلدون: «لأربعة أشهر بعدها» وقال ابن الخطيب وغيره: كانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة. وقيل غير ذلك.

وقال في القرطاس: «لما رجع الموحدون من غزو مراكش إلى تينملل خرج إليهم المهدي فسلم عليهم ورحب بهم، وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة. فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذي مات منه، وقدم عبد المؤمن للصلاة أيام مرضه، ثم توفي في التاريخ المتقدم».

وذكر بعض المؤرخين: «أن المهدي رأى في منامه قبل وفاته كأن آتياً أتاه فأنشده أبياتاً نعى له فيه نفسه، وأعلمه باليوم الذي يموت فيه فكان كذلك» انظر القرطاس.

وقد مر في هذه الأخبار ذكر «كتاب الجفر» وربما تتشوق النفس لمعرفة حقيقته، فقد قال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر الصادق في جلد ثور صغير، فرواه عنه

هارون العجلي، وكتبه وسماه «الجفر» باسم الجلد الذي كتب فيه (لأن الجفر في اللغة هو الصغير) فصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق رضي الله عنه».

وذكره ابن قتيبة في أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره العجلي» ثم قال ابن قتيبة:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم في جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمام ومنهم ... طوائف سمته النبي المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمٰن ممن تجفرا

في أبيات غير هذه، ثم قال ابن قتيبة: «وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الإمام جعفر الصادق كل ما يحتاجون إليه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة» اهـ وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر، وخالف هذا المذهب أبو العلاء المعري فقال:

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم في مسك جفر
ومرآة المنجم - وهي صغرى - ... أرته كل عامرة وقفر

والمسك بفتح الميم الجلد، والجفر بفتح الجيم ما بلغ أربعة أشهر من أولاد المعز وكانت عادتهم في ذلك الزمان أنهم يكتبون في الجلود وما شاكلها لقلة الأوراق يومئذٍ.

وقال ابن خلدون: كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضي الله عنه ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح النسبة إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه. فهم أهل الكرامات رضي الله عنهم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي وأوليتها

اعلم أن بني عبد المؤمن ليسوا من المصامدة، وإنما هم من كومية، ثم من بني عابد منهم وكومية، ويعرفون قديماً بصطفورة بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر، فهم بنو عم زناتة يجتمعون في ضري بن زجيك. هذا هو الصحيح. وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن إلى قيس عيلان بن مضر، وهو ضعيف.

قال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن من بني عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم» قال: «وموطنهم بتاكرارت وهو حصن في الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق».

وقال ابن خلكان: «كان والد عبد المؤمن وسيطاً في قومه، وكان صانعاً في عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً».

ويحكى أن عبد المؤمن في صباه كان نائماً تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله في الطين، فسمع أبوه دوياً في السماء، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن، وهو نائم فغطته، ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها، فرأته أمه على تلك الحال، فصاحت خوفاً على ولدها فسكتها أبوه، فقالت: «أخاف عليه» فقال: «لا بأس عليه، بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك» ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل، فطار عنه بأجمعه، فاستيقظ الصبي، وما به من ألم! فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثراً! ولم يشك ألماً!».

وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر، فمضى أبوه إليه فأخبره بما

رآه من النحل مع ولده، فقال الزاجر: «يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب» فكان من أمره ما اشتهر.

وقد تقدم لنا أن المهدي كان عنده كتاب الجفر، وكان فيه أن أمره لا يتم إلا على يد رجل اسمه كذا، وحليته كذا، وهو عبد المؤمن بن علي فأقام المهدي يتطلبه مدة إلى أن لقيه بملالة، وعبد المؤمن إذ ذاك شاب حدث طالب علم، فلازم المهدي واستمسك بغرره إلى أن كان من أمره ما كان.

وكان المهدي يتفرس فيه النجابة وينشد إذا أبصره:

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة، والكف مانحة، والنفس واسعة، والوجه منبسط

والبيتان لأبي الشيص الخزاعي. وكان يقول لأصحابه: صاحبكم غلاب الدول! وكان يقول: عبد المؤمن من صدِّيقي هذه الدائرة!.

وقال ابن خلدون: «آثر المهدي عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم، حتى كان خالصة المهدي وكنز صحابته، وكان مؤمله لخلافته لما أظهره عليه من الشواهد المؤذنة بذلك. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

وخلف الأمر لعبد المؤمن فانقادت الدنيا له في رسن
حباه بين القوم بالإمارة إذ وضحت له فيه الأمارة

ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالثعالبة - عرب الجزائر - أهدوا إليه حماراً فارهاً يركبه لأنه كان ساعياً على رجليه، فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه: «أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة!» وزعم بنو عبد المؤمن أن المهدي كان استخلفه من بعده. وقال ابن خلكان: «لم يصح أنه استخلفه وإنما راعى أصحابه في تقديمه إشارته فتم له الأمر». والله أعلم.

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها

لما توفي المهدي في التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل.

ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده، وكانوا من قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها، وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها، فتنافسوا في ذلك، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق، وأن تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريباً بين أظهرهم، ليس من المصامدة لأن المصامدة من البرانس، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر، فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر.

وقال ابن خلدون: «لما مات المهدي خشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن. لكونه من غير جلدتهم، فأرجؤوا الأمر إلى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكتموا موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب، ويدخل أصحابه إلى بيته كأنه اختصهم بعيادته، فيجلسون حوالي قبره، ويتفاوضون في شؤونهم، ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولى ذلك عبد المؤمن. حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم، وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس. فأظهروا للناس موت المهدي وعهده لصاحبه، وانقاد بقية أصحابه لذلك، وروى لهم يحيى بن يغمور أنه كان يقول في دعائه أثر صلواته: «اللهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا له وأجمعوا على بيعته.

وزعموا[1] أن عبد المؤمن استعمل في ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك أنه عمد إلى طائر وأسد فضراهما حتى أنسا به، وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له: «النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين!» وعلم الأسد أن يبصبص له ويتمسح به كلما رآه! ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الألفة واجتماع الكلمة، وحذرهم عاقبة البغي والخلاف، وبينما هو في ذلك إذ أرسل سائس الأسد أسده، وصفر صاحب الطائر لطائره، فبصبص هذا! وأعلن بالنصر هذا! فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة في أمره وثباتاً على بيعته، مع ما كان من تقديم المهدي له في الصلاة أيام مرضه، وفي ذلك يقول بعضهم:

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد

ودعا الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم حين وفد

والله أعلم.

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوماً من ربيع الأول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل. وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين؛ لم يتخلف عن بيعته منهم أحد، فاستوسق له الأمر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد إفريقية إلى برقة، وبلاد الأندلس بأسرها، وخطب له على منابر

(1) قد نقل العلامة المقري عن تاج الدين بن حمويه السرخسي في رحلته إلى المغرب الأقصى أن هذه القصة وقعت ليعقوب المنصور الموحدي وذلك أن قوماً من الغرباء قصدوه ومعهم حيوانات معلمة منها أسد وغراب فربض الأسد بين يدي المنصور ودعا الغراب له بالنصر فقال بعضهم الأبيات المذكورة وهذا هو الصحيح لأن السرخسي يحدث عن مشاهدة لوجوده من زمن المنصور انظر نفح الطيب ج2 ص 739.

هذه الأقاليم كلها على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبى، ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها، ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها، ثم تسابق الناس إلى دعوته أفواجاً، وانتقضت البربر على المرابطين في سائر أقطار المغرب. وكان ما نذكره:

غزوة عبد المؤمن الطويلة التي استولى فيها على المغربين

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة التي مكث فيها سبع سنين، وأجلت عن فتح المغربين معاً الأقصى والأوسط. خرج لها من تينملل في صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويذلل صعابها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل، وخرج تاشفين بن علي في أتباعه من مراكش على طريق السهل إلى أن وصلا إلى تلمسان حسبما قدمناه في أخبار المرابطين.

قال ابن خلدون: خرج عبد المؤمن في هذه الغزوة من تينملل يعني على طريق الجبل كما قلنا، وخرج تاشفين بن علي - يعني في حياة والده بعساكره يحاذيه في البسيط - والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن، وهو يتنقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء، إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وأقشعت الرعايا عن البلاد، وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة الأندلسية، وهلك خلال ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وولي بعده ابنه تاشفين بن علي المذكور وهو في غزاته هذه.

وفي القرطاس: «ارتحل عبد المؤمن إلى جبال غمارة، وارتحل تاشفين بن علي في أثره، فنزل بإزاء عين القديم وذلك في فصل الشتاء فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدموا بيوتهم وخيامهم» انتهى.

ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة ـ منهم عامل تلمسان يحيى بن إسحاق المعروف بآنكمار ـ ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا في دعوته، فنبذ إليهم المرابطون العهد وإلى سائر مسوفة. واستمر عبد المؤمن على حاله، فنازل سبتة فامتنعت عليه. وتولى كبر دفاعه عنها القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر، وكان رئيسها يومئذٍ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه.

قال ابن خلدون: «ولذلك سخطته الدولة ـ يعني دولة الموحدين ـ آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة مستعملاً في خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمه الله. وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثة وبطوية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة، وكان قد بعث إليهم جيشاً من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين، فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة، فهزمهم الموحدون، وقتل ابن فانوا وانفض جمع زناتة ورجعوا إلى بلادهم. وولى تاشفين بن علي على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، وقدم على عبد المؤمن ـ وهو بمكانه من الريف ـ أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر ـ من أمراء بني ومانوا من زناتة ـ فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين في عسكر، فأثخنوا في بلاد بني عبد الواد وبني يلومي من زناتة سبياً وأسراً، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي، فأمدهم بعساكر لمتونة ـ ومعهم الروبرتير قائد الروم ـ ونزلوا منداس، وانضمت إليهم قبائل زناتة من بني يلومي، وبني عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر وإخوانهم بني توجين وغيرهم، فأوقعوا ببني ومانوا وقتلوا

أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، واستنقذوا غنائمهم، وتحصن الموحدون وفل بني ومانوا بجبل سيرات.

ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن ومستجيشاً به على لمتونة وزناتة. فارتحل معه عبد المؤمن إلى تلمسان ثم أجاز إلى سيرات.

وقصد محلة لمتونة وزناتة فأوقع بهم، ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطرى، ونزل تاشفين بن علي بالسهل مما يلي الصفصاف، ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب، أمدوا به تاشفين بن علي وقومه لعصبية الصنهاجية، وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام. فعرض بلمتونة وأميرهم تاشفين بن علي لقعودهم عن مناجزة الموحدين، وقال: «إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي» فامتعض تاشفين بن علي من كلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم، فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره. وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير في عسكر ضخم، فأغار على قوم من زناتة كانوا في بسيط لهم فاكتسحهم ورجع بالغنائم، فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتلوا الروبرتير في جملتهم.

ثم بعث تاشفين بن علي بعثاً آخر إلى جهة أخرى، فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين. واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل.

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن علي اللمتوني فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث ابنه ـ ولي عهده ـ إبراهيم بن تاشفين إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون

إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل، فأرسى قريباً من معسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم، وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة، فأثخن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في دعوتهم. ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بني يلومي، وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وغيرهم، فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران، فبيتوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً فرسه فتردى به من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وبعث برأسه إلى تينملل ونجا فل العسكر إلى وهران، فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمهم الله. وبلغ خبر مقتل تاشفين بن علي إلى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج في آخرين من أعيانهم، ففر معهم من كان بها من لمتونة.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد أن كان بعثوا ستين من وجوههم فلقيهم يصليتن من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم أجمعين. وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين.

فتح مدينة فاس

نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم يزل محاصراً لتلمسان والفتوح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة، إلى أن اعتزم على الرحيل إلى المغرب. فترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، وقصد مدينة فاس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصحراوي من فل تاشفين بن علي من وهران، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم نهض في أتباعه وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو إبراهيم من صحابة المهدي العشرة فحاصروها سبعة أشهر، ثم داخلهم ابن الجياني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلاً، وفر يحيى بن أبي بكر الصحراوي إلى طنجة، ثم أجاز منها إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية بالأندلس ـ وكان والياً على قرطبة من قبل المرابطين ـ فأقام عنده إلى أن كان من أمره ما نذكره. وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها.

وحكى صاحب القرطاس في فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال: وفي سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن فاساً بعد حصار شديد: قطع عنها ماء النهر الداخل إليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الأرض وانتهى إلى مراكزه منها ثم خرق السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد عن ألفي دار بالتثنية وهلك بها خلق كثير وكان الماء يأتي على أكثرها، ثم دخلها عبد المؤمن وأمن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فإنه أمر أن لا يمضي لهم أمان، وقتلهم قتل عاد. ثم أمر بسور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جداً، وقال: «إنا لا نحتاج إلى سور وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا» فلم تزل فاس لا سور لها إلى أن تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه، ومات فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة.

ولما فتح عبد المؤمن فاساً ولى عليها إبراهيم بن جامع الذي خلفه على تلمسان، فإنه لما فتحها ارتحل إلى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس، ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها، وكان قد اعترضه في طريقه المخضب بن عسكر شيخ بني مرين ونالوا منه ومن رفقته، وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التي استولى عليها عبد المؤمن بوهران، وكان ابن جامع ذاهباً بها إلى تينملل فاعترضه بنو مرين وانتزعوها منه، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فكتب إلى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر إلى بني مرين، فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ بني عبد الواد، فأوقعوا ببني مرين وقتل المخضب شيخهم.

فتح مراكش واستئصال بقية اللمتونيين

ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامداً إلى مراكش فوافته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة، ومر على مدينة سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة وثلم سورها كفاس، ونزل منها بدار ابن عشرة، وكانت هذه الدار قصراً بديعاً بمدينة سلا، بناه الفقيه أبو العباس بن القاسم من بني عشرة، فشيده وأتقنه، ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له، وكان بالحضرة يومئذٍ الأديب ابن الحمارة ولم يكن أعد شيئاً ففكر قليلاً ثم قال:

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة ... فحل فيها حلول الشمس في الحمل

فما كدارك في الدنيا لذي أمل ... ولا كدارك في الأخرى لذي عمل

وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم. ثم تمادى عبد المؤمن إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة، فأثخن فيهم ورجع فلقيه في طريقه وانتهوا جميعاً إلى مراكش، وقد انضم إليها جموع لمطة، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم، وأقاموا على

مراكش تسعة أشهر، وأميرهم يومئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكانوا قد بايعوا أولاً إبراهيم بن تاشفين بن علي فألفوه مضعفاً عاجزاً، فخلعوه وبايعوا عمه إسحاق بن علي المذكور، وهو صبي صغير؛ ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل، فاقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واجاج منهم.

وانمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على جميع البلاد. وقد قيل في ترتيب هذه الأخبار غير هذا الوجه.

قال ابن مطروح القيسي: لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياماً وذلك في شوال سنة ست وعشرين وخمسمائة، ثم ارتحل عنها إلى تادلا، ثم إلى سلا، فتلقاه أهلها سامعين مطيعين. فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها.

وفي سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين[1]. واعلم أن اللقب كان في صدر الإسلام خاصاً بالخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم. ولما قام عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس

---

(1) وعبد المؤمن هذا هو أول من تسور على اللقب بأمير المؤمنين من غير جنس العرب، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه. انظر تحقيق القول في هذا المبحث في مقدمة تاريخنا المغربي.

المعاصرين له بالمشرق، فهو أول من زاحم الخليفة في هذا اللقب، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمٰن الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأى أن له في الخلافة حقّاً اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما ـ أعني العبيدي والأموي ـ قرشي من عبد مناف، ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المؤمنين لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت، إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والأندلس، وعظم سلطانه واتسعت مملكته، وخاطب الخليفة العباسي بالمشرق فولاه على ما بيده، وتسمى بأمير المسلمين أدباً مع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفاً ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها، وحتى سامها كل مفلس

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا، فبنيت وحصن سورها، ثم كانت محاربته لتاشفين بن علي على نحو ما أسلفناه. والله تعالى أعلم.

ثورة محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوي رجلاً من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمساراً بها يبيع الكنابيش، وكان هو قصاراً بها مدة، ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس، ودعا لنفسه وتسمى بالهادي، وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة، فأقبل إليه الشراد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق، وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة، وفشت ضلالته في جميع المغرب.

قال في القرطاس: بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش، فسرح إليه عبد المؤمن عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن إسحاق أنكمار النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي حسبما تقدم، فالتقى بالماسي وقاتله فانتصر الماسي عليه وعاد مهزوماً إلى عبد المؤمن، فسرح إليه عبد المؤمن ثانياً الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم، واحتفل عبد المؤمن في الاستعداد. ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وشيعه عبد المؤمن إلى وادي تانسيفت، ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص في جيوش الموحدين حتى انتهوا إلى رابطة ماسة فبرز إليهم محمد بن هود في نحو ستين ألفاً من الرجالة وسبعمائة من الفرسان، فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم، وقتل محمد بن هود في المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه، وكان ذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان الذي باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش، فلقبه الموحدون سيف الله تشبيهاً له بخالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكتب الشيخ أبو حفص إلى عبد المؤمن برسالة الفتح من إنشاء الفقيه أبي جعفر بن عطية القضاعي الكاتب المشهور يقول فيها: «كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم، ونصره تعالى المعهود القديم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فتح بهر الأنوار إشراقاً؛ وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً، ونبه للأماني النائمة جفونا وأحداقاً، واستغرق غاية الشكر استغراقاً، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب.

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضالون قد بطروا عدواناً وظلماً، واقتطعوا الكفر معنًى واسماً، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته، ونصب له الشيطان من حبلاته؛ فأتته المخاطبات من بعد وكثب، وانسلت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم إلى ذلك؛ وأوردهم تلك المهالك؛ وصول من كان بتلك السواحل، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس، فيما سلف من الأعوام، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام؛ آناء الليالي والأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً».

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي للهداية: «فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت إليه بوادر منونه، وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه؛ وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه: والنوائب لا تنوبه! ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً! فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه؛ هزم من كان لهم من الأحزاب؛ وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسامهم، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً؛ ولقي من أمر الهنديات فظيعاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه؛ اختطفته الأسنة اختطافاً، وأذاقته موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لججه؛ ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقنه غرقه؛ ودخل

الموحدون إلى البقية الكائنة فيه، يتناولون قتلهم طعناً وضرباً، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً، حتى انبسطت مراقات الدماء، على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقته؛ حمرة الشفق على زرقة السماء، وجزت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحر!».

وبالجملة فهي رسالة بليغة، وهي التي أورثت منشئها الرتبة العلية، والمنزلة السنية، فإن عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعاً كبيراً، فاستكتبه أولاً؛ ثم استوزره ثانياً، ثم نكبه وقتله ثالثاً كما سيأتي.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياماً ثم خرج غازياً بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة، وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا للطاعة ورجع.

ثم خرج إلى هسكورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم.

ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش.

ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة، ثم هزموه، واضطرمت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره.

انتقاض أهل سبتة على الموحدين
وخبر القاضي عياض رحمه الله معهم

قد تقدم لنا أن عبد المؤمن كان غزا سبتة في غزوته الطويلة، وأن القاضي عياضاً رحمه الله دافعه عنها، وأنه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة في جملة من بايع من أمصار المغرب.

قالوا: «وبادر القاضي عياض إلى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهباً لفتح مراكش فأجزل صلته، وولى على سبتة يوسف بن

مخلوف التينمللي وساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمأنوا إليهم.

فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضاً، وكان انتقاضهم كما في القرطاس ـ برأي القاضي عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار.

وركب القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، وكان معتصماً بقرطبة متمسكاً بدعوة المرابطين، فلقيه وأدى إليه البيعة؛ وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان معتصماً بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها، ففر ولحق بابن غانية كما قلنا، وبقي في جملته إلى أن بعثه مع القاضي عياض في هذه المرة فدخل يحيى سبتة وقام بأمرها.

ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الأخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبي حفص خرج من مراكش قاصداً بلاد برغواطة أولاً، ثم من بعدهم ثانياً، فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم، فكتبوا إلى يحيى بن أبي بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم، فأتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه، ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة؛ وتبرؤوا من يحيى الصحراوي ولمتونة، وفر الصحراوي إلى منجاته، ثم طلب الأمان من عبد المؤمن وتشفع إليه بأشياخ القبائل فأمنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه، وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط في أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبتها تائبين، فعفا عنهم وعن القاضي عياض، وأمره بسكنى مراكش، والصحيح أنه ولاه القضاء بتادلا ثم دخل مراكش، قيل دخلها مريضاً مرض موته، وقيل مات بالطريق

وحمل إليها؛ وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا.

واعلم أن ما صدر من القاضي عياض رحمه الله في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة وإنما هم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح. ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن، ودافعه عن سبتة إذ لا موجب لذلك لأن بيعة تاشفين في أعناقهم وهو لا زال حياً، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب.

وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من أن المرابطين مجسمة، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار، فضلاً عن أن تكون طاعتهم واجبة، فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه!.

ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضي عياض حينئذٍ وقبل صلته، لأن من قويت شوكته وجبت طاعته.

ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام الماسي عليه وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة، ولم يأخذ بدعوة الماسي لأنه ثائر أيضاً، هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من أنه غلبت نزعة خارجية عليه، وأنه يقول بعصمة الإمام وذلك بدعة كما لا يخفى، فتكون إمامته وإمامة أتباعه مقدوحاً فيها من هذه الحيثية، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة. فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولاً وثانياً وثالثاً كله صواب موافق للحكم الشرعي، فهكذا ينبغي أن تفهم أحوال أئمة الدين، وأعلام المسلمين رضي الله عنهم ونفعنا بعلومهم.

وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضي عياض رحمه الله أنه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه، لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحدود، لا سيما أيام الفتن، وذلك معروف من حالهم والله الموفق.

ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم إياها سبع سنين: اقتحموها عنوة يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى من السنة المذكورة فخربت وقتل أكثر رجالها وسبي حريمهم وخمست أموالهم، ثم بنيت مكناسة تاكرارت المدينة الموجودة الآن.

أخبار الأندلس وفتوحها

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاساً بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين.

وقال ابن خلدون: بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشاً من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسوفي النازع إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي، وعقد له على حرب الأندلس ومن بها من لمتونة والثوار، وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي.

ولما أجازوا إلى الأندلس نزلوا بأبي الغمر بن عزرون، صاحب شريش، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس بلد شريش. خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل في طاعته، فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين. وحررت أملاكهم، فلم تزل محررة سائر أيامهم، فلم يكن في أملاكهم رباعة وجميع بلاد

الأندلس مربعة. وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادي منهم أهل شريش، فكان يقال: أين السابقون؟ فيدخلون للسلام، فإذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذٍ، وكان فتح شريش فاتح ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

ثم زحف الموحدون إلى لبلة، وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي، فبذل لهم الطاعة، ثم زحفوا إلى شلب ففتحوها، ثم نهضوا إلى باجة، وبطليوس، ففتحوهما أيضاً؛ ثم زحفوا إلى إشبيلية فحاصروها براً وبحراً إلى أن فتحوها في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة؛ وفر من كان بها من المرابطين إلى قرمونة، وقتل من أدركه القتل منهم، وقتل في جملتهم عبد الله ولد القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الحافظ المشهور: وأصيب في هيعة تلك الدخلة من غير قصد.

وكتب الموحدون بالفتح إلى عبد المؤمن، ثم قدم عليه وفدهم بمراكش مبايعين له سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ورئيس الوفد يومئذٍ القاضي أبو بكر بن العربي المذكور، فألفوا عبد المؤمن مشغولاً بحرب محمد بن هود الماسي، فأقاموا بمراكش سنة ونصفاً، لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الأضحى من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة، ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص، وقبلت بيعتهم.

وسأل عبد المؤمن القاضي أبا بكر بن العربي عن المهدي هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالي، فقال: «ما لقيته، ولكن سمعت به» فقال له: «فما كان أبو حامد يقول فيه؟» قال: «كان يقول: إن هذا البربري لا بد أن سيظهر!» ثم صرف عبد المؤمن أهل إشبيلية بعد أن أجازهم، وكتب لهم منشوراً بتحرير أملاكهم، فانصرفوا عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فلما قربوا من مدينة فاس توفي الإمام أبو بكر بن العربي رحمه

الله، فحمل ودفن خارج باب المحروق منها، بتربة القائد مظفر، وقبره مزارة إلى الآن، وعليه قبة حسنة.

وفي هذه السنة ملك الموحدون قرطبة؛ وكان بها يحيى بن علي المسوفي ـ المعروف بابن غانية ـ مقيماً لدعوة المرابطين، فلما دخل الموحدون الأندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة في بلاد الإسلام، وضايق ابن غانية بقرطبة، وألح على جهاته؛ حتى نزل له عن بياسة وأبدة؛ وتغلب على أشبونة، وطرطوشة، والمرية؛ ومارده، وأفراغة، وشنترين، وشنتمرية؛ وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الإفراج عن قرطبة، فأرسل ابن غانية إلى بدران بن محمد أمير الموحدين، واجتمعا بأستجة، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة، وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين، وأراد أن يكلمه في الدخول في طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة، فتوفي بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ودفن في القصبة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجي، وانتهز الطاغية الفرصة في قرطبة فزحف إليها وحاصرها، فجهز إليه الموحدون الذين كانوا بإشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها، ووصل إليه مدد يوسف البطروجي من لبلة، وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور، ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، وبادر ثوار الأندلس إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن، ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم، وصفح لهم عما سلف.

قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة أهل الأندلس عليه بها

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة قدم عبد المؤمن من مراكش إلى سلا، فنظر في أمرها وأجرى إليها ماء عين غبولة، حتى وصل إلى رباطها؛ ولم تكن رباط الفتح يومئذٍ قد بنيت، لأن بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتي إن شاء الله، وإنما كان يقال رباط سلا.

ثم أذن عبد المؤمن لأهل الأندلس في الوفادة عليه بسلا، فقدموا عليه في نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشياخ والقواد، فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاتي، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية؛ وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة، فأمر عبد المؤمن بإنزالهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام، وأنواع الضيافات والإنعام؛ وبقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول فدخلوا عليه أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة؛ فسلموا عليه.

وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدم، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فأراد أن يتكلم فدهش، ثم وصف حال قرطبة؛ فقال: «يا أمير المؤمنين، إن الفنش لعنه الله قد أضعفها».

فتلافاه أبو بكر بن الجد بالخطبة البليغة، فجلى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المؤمن خطبته، ووصل الجميع كلاًّ على قدره، وقضى مطالبهم؛ وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم، فانصرفوا فرحين مغتبطين.

وقال ابن خلدون: «استدعى عبد المؤمن أهل الأندلس ـ وهو بسلا ـ فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر؛ مثل سدراتي ابن وزير صاحب باجة ويابرة، ويوسف البطروجي صاحب لبلة، وابن عزرون صاحب شريش ورندة، ومحمد بن الحجام

صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة، وتخلف ابن القيسي وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتله من بعد، وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورجع عبد المؤمن إلى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته. والله تعالى أعلم.

غزو إفريقية وفتح مدينة بجاية

ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقية بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها، فأجمع الرحلة إلى غزوها، بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه، فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة، واستخلف عليها الشيخ أبا حفص الهنتاتي؛ وسار حتى وصل إلى سلا فأقام بها شهرين، ثم نهض منها إلى سبتة مظهراً أنه يريد العبور إلى الأندلس بقصد الجهاد.

فلما وصل إلى سبتة استدعى فقهاء قرطبة وإشبيلية وأعيان الأندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد، وأوصاهم بما إليهم منها وودعهم.

ورحل عن سبتة مظهراً العود إلى مراكش، وصار حتى وصل إلى القصر الكبير؛ وهو قصر كتامة، فميز جيوشه وأزاح عللهم وفرق فيهم الأموال، وأمرهم بتجديد الأزواد، وخرج يعتسف البلاد على غير طريق فجعل مدينة فاس عن يمينه، وجد السير حتى خرج على وادي ملوية، ثم سار إلى تلمسان فأقام بها يوماً واحداً، ثم خرج منها وولى السير قاصداً بجاية؛ فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها، فدخلها وأمنهم، وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز إلى أبيه يحيى ببجاية.

وخرج إلى عبد المؤمن الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان الفرنج قد أخرجوه منها، فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب

بجاية فعدل به إلى الجزائر وأنزله بها كالمسجون. فلما طرق عبد المؤمن الجزائر في هذه المرة خرج إليه الحسن بن علي المذكور، فصحبه ووصل يده بيده، حتى كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها، وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجي آخر ملوك بني حماد أصحاب القلعة. فركب البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله، وعزم على المسير إلى مصر؛ ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث، فأنكر عليه سوء صنيعه وإفراجه عن البلد، فارتحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الأمر.

وفي خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة، وكان عبد المؤمن وجه جيشاً من الموحدين إليها وأمّر عليهم ابنه أبا محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران في مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفاً؛ وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي، ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الأثبج وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف، فأوقعوا بهم واستلحموهم وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم.

وأما يحيى بن العزيز فإنه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسمائة. ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له عبد المؤمن ونقله إلى مراكش بأهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الإحسان، وأنزله منزلة رفيعة، ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، فسكن بقصر ابن عشرة منها إلى أن مات من سنته رحمه الله.

ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبراء العرب من أهل إفريقية طائعين، فوصلهم ورجعوا إلى قومهم، مغتبطين.

فتح المرية وبياسة وأبدة

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالأندلس، فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص إلى الأندلس في جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد ـ وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة ـ فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار، وبنى السيد أبو سعيد على محلته سوراً، واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغاثهم بمحمد بن مردنيش ـ وكان واصلاً يده بيده ـ ووجه معه السلطين أحد قواد الفرنج في جيش كثيف، فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور. فرجع ابن مردنيش والسلطين بخفيّ حُنين وافترقا فلم يجتمعا بعد.

ثم عمد السلطين إلى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفاً عليهم؛ ورجع عوده على بدئه. وأما السيد أبو سعيد فإنه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الأمان بواسطة الوزير ابن عطية.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وجه عبد المؤمن على يصليتن قريب المهدي فأتي به مكبولاً من سبتة، فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لأمر نقمه عليه.

ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل يصليتن إلى تينملل بقصد زيارة قبر المهدي، فزار وفرق في أهلها أموالاً عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها.

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا
وتولية أولاده على النواحي بها

لما قضى عبد المؤمن إربه من تينملل ارتحل منها إلى سلا، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها، فبايع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولاية العهد، وأمر أن يذكر في الخطبة بعده، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق.

ثم عقد لابنه السيد أبي الحسن علي على فاس وأعمالها، واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان. وعقد لانه السيد أبي حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش. وعقد لابنه السيد أبي سعيد عثمان على سبتة وطنجة، واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان، وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي، واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي، وأبا بكر بن حبيش الباجي. وعقد لابنه السيد أبي محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن. وعقد للشيخ أبي زيد بن يكيث على قرطبة وأعمالها، ويقال إن قرطبة كانت في هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور والله أعلم.

واستقامت الأحوال لعبد المؤمن وبنيه، وصفا له المغربان والأندلس والله غالب على أمره.

إيقاع عبد المؤمن بعبد العزيز وعيسى أخوي المهدي والسبب في ذلك

كان عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي من مشيخة العسكر ووجوه الجيش بإشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم. ثم ساء أثرهما بها، واستطالت أيديهما على أهلها، واستباحا الدماء والأموال؛ ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة، فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم إلى المرابطين، ونشأ عن ذلك فساد كبير بالأندلس؛ ثم لحق أخوا المهدي بالعدوة في خبر طويل:

واستمر حالهما إلى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد، وعقد لإخوته على العمالات والنواحي، ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك، مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما يصليتن، وكانا يومئذٍ بفاس وعبد المؤمن بسلا، فخرجا من فاس إلى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر.

واتصل خبر خروجهما بعبد المؤمن، فخرج من سلا في أثرهما متلافياً أمر مراكش، وقدم أمامه وزيره أبا جعفر بن عطية، فسبقاه إليها وداخلا بعض الأوباش بها في شأنهما، فوثبوا بعاملها أبي حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبة.

ووصل على أثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره، فأطفأ تلك النائرة، وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسى فقتلهما وصلبهما وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد.

إيقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة وإسرافه في ذلك

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلة، وكان المتولي لفتحها يحيى بن يغمور والي قرطبة وإشبيلية، حاصرها مدة ثم اقتحهما عنوة، وقبض على أهلها فخرج بهم إلى ظاهر المدينة، وصفهم في صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم إلى الفقيه المحدث أبي الحكام بن بطال، والفقيه الصالح أبي عامر بن الجد.

وكان عدد من قتل من أهل لبلة في ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل بأحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم فعل ذلك افتياتاً على عبد المؤمن! وبلغه الخبر وهو بمراكش، فسخطه. وبعث إليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلاً إلى الحضرة يوم عيد الفطر، فألزمه بيته وبقي على ذلك مدة ثم عفا عنه وسرحه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان. ولم يصرف إلى أهل لبلة شيئاً مما أخذ لهم واستقام أمر الأندلس ونزل ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة، بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك ولحق الملثمون بمراكش.

أمر[1] عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه، وبتغيير المنكرات ما كانت. وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة فجزاه الله خيراً.

نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة ثم بجامعها الأعظم المشهور مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن بشكوال وغيره وكان ذلك المصحف الكريم متداولاً عند بني أمية وأهل الأندلس، واستمر بقرطبة إلى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن إلى مراكش.

قال ابن بشكوال: «أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها، وكان بجامعها الأعظم ليلة السبت الحادي عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره، وهذا

(1) الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي: أن يعقوب المنصور هو الآمر بذلك. فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لأول الأمر، لكن الظاهر من كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصداً وعزماً لعبد المؤمن وابنه يوسف، إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب بعدهما اهـ. وما ذكره المؤلف هنا منقولاً عن صاحب القرطاس. وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع.

أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار: مكة؛ والبصرة، والكوفة؛ والشام. وما قيل من أن فيه دم عثمان بعيد وإن يكن أحدها فلعله الشامي».

قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي: «أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق، وعاينته هنالك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكي بقبة الشراب». قال: «فعله الكوفي أو البصري».

قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن: «اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس، فألفيت خطهما سواء؛ وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحداً منها؛ وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المتني، ونص ما على ظهره: هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص؛ وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله عنهم على كتب المصحف» اهـ.

وكان من خبر نقله إلى مراكش ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور، قال: «وصل إلى عبد المؤمن ابناه السيدان أبو سعيد، وأبو يعقوب من الأندلس؛ وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف، فتلقى وصوله بالإجلال والإعظام وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام.

وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب. وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره، وتروى مع نفسه في كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم، فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه؛ ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشراقه، فوقف عن ذلك فأوصله الله إليه تحفة سبنية؛ وهدية

هنية، دون أن يكدرها من البشر اكتساب؛ أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب. بل أوقع الله تعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله، ما أطلع بالمشاهدة على صحة صدقه، وعضلت مخايل برقه، سواكب ودقه؛ وعد ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته.

ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته واختيار حليته، فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس؛ فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين! ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق في صناعة، إلا أحضر للعمل فيه؛ والاشتغال بمعنى من معانيه!.

وبالجملة، فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس؛ وبعضها من الذهب والفضة، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال. واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك في غرابة الصنعة وبداعة الصبغة.

واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال! ووصف ذلك يطول.

وفي خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله، فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وكمل في منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع، وأفسح المساحة؛ وأحكم البناء والنجارة، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه؛ فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلاً عن بنائه! وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور.

ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدي بمدينة تينملل،

فأقام بها بقية شعبان ومعظم رمضان، وحمل في صحبته المصحف العثماني في التابوت المذكور، ومعه مصحف المهدي؛ وختم القرآن العزيز في مسجد المهدي وعند ضريحه ختمات كثيرة، وعاد إلى مراكش.

ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه في أسفارهم متبركين به كتابوت بني إسرائيل إلى أن حمله منهم السعيد وهو علي بن إدريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه إلى تلمسان، آخر سنة خمس وأربعين وستمائة، فقتل السعيد قريباً من تلمسان؛ ووقع النهب في الخزائن، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر؛ ونهب المصحف في جملة ما نهب منه، وعثر عليه ملوك بني عبد الواد أصحاب تلمسان؛ فلم يزل في خزانتهم بها إلى أن افتتحها السلطان الأعظم أبو الحسن المريني أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله في أسفاره على العادة إلى أن أصيب في وقعة طريف وحصل في بلاد البرتغال، وأعمل أبو الحسن الحيلة في استخلاصه حتى وصل إلى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آزمور واستمر في خزانته إلى أن سافر أبو الحسن سفرته المعلومة إلى إفريقية فاستولى عليها.

ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلاً إلى المغرب؛ وذلك في إبان هيجان البحر؛ فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر؛ وضاعت نفائس يعز وجود مثلها؛ ومن جملتها المصحف العثماني فكان ذلك آخر العهد به.

ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقباني؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب؛ وكان متداولاً عند ملوكه ومتبركاً به وثاني المصحفين في المنزلة عند أهل المغرب.

قال أبو عبد الله اليفرني في كتاب النزهة: «إن السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبي لما جدد ولاية العهد لولده المأمون

بعث إليه بالقدوم من مدينة فاس؛ فوافاه بتامسنا؛ وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل العقد والحل؛ وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه» قال: «وهو من ذخائر الخلفاء. وأحضر الصحيحان للشيخين؛ وقرىء ظهير البيعة وذلك في شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة. ولم يزل المصحف العقباني متداولاً بين الملوك السعديين إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور إليها. وتداولته ملوكها إلى أن جاء السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل بن الشريف رحمه الله؛ فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوي؛ وبعث في جملتها المصحف المذكور».

قال صاحب البستان: «ولما سافر الركب النبوي يعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفاً - بين كبير وصغير - كلها محلاة بالذهب؛ منبتة بالدر والياقوت؛ ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري نسخه بالقيروان من المصحف العثماني؛ فوقع هذا المصحف بيد الأشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبد الله المذكور فغربه من المغرب إلى المشرق؛ ورجع الدر إلى صدفه والإبريز إلى معدنه.

قال الشيخ المسناوي: «وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه إلى الحجرة النبوية؛ وظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما».

ووجه معه السلطان المذكور ألفي حصاة بالتثنية وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلفة الألوان إلى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهذه الأخبار وإن كانت متباعدة التاريخ فهي متناسبة المعنى؛ جمعناها هنا ليقف الناظر عليها في محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة. والله الموفق.

نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة؛ ثم بعد من دانية.

وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني. ثم لابنه تاشفين من بعده؛ وتحصل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن.

ولما حاصر عبد المؤمن فاساً اعتزم أبو أحمد هذا الفرار فتقبض عليه في طريقه؛ وسيق إلى عبد المؤمن فاعتذر؛ فلم يقبل عبد المؤمن عذره. وسحب إلى مصرعه فقتل رحمه الله.

وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتباً لإسحاق بن علي اللمتوني بمراكش فشمله عفو أمير المؤمنين فيمن شمله من ذلك الفل.

وخرج في جملة الشيخ أبي حفص الهنتاتي حين نهض لقتال محمد بن هود الماسي.

فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المؤمن فاستحسنها واستكتبه لذلك. ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره؛ فظهر غناؤه وكفايته، وحمدت سيرته وإدارته؛ وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها؛ وبعد في الدولة صيته، ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته؛ وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان؛ فعمت صنائعه وفشا معروفه. وكان محمود السيرة مبخت المحاولات؛ ناجح المساعي؛ سعيد المآخذ ميسر المآرب. وكانت وزارته زيناً للوقت؛ وكمالاً للدولة رحمه الله.

ثم لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وفد أشياخ إشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه في ولاية بعض أبنائه عليهم، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها؛ وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال، فأغنى في ذلك الغناء الجميل.

ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه

والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة عليه؛ فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي؛ وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد في التماس عوراته؛ وتشنيع سقطاته، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها:

قل للإمام أطال الله مدته قولاً تبين لذي لب حقائقه
إن الزراجين قوم قد وترتهم وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل فذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نارهم فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره أبي جعفر وأضمر له في نفسه شرّاً، فكان ذلك من أقوى أسباب نكبته وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه.

وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش، فحجب عنده قومه؛ ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم؛ وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار إليه منهم؛ فأجاب كل بما اقتضاه هواه؛ وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية؛ وتوجه في أثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي؛ فاستصحبهما بحال ثقاف.

وصدر عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الآداب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب؛ فلم تجد شيئاً مع نفود الله تعالى فيه.

ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراكش؛ فلما حاذى تاكمارت أنفذ الأمر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك؛ فمضيا لسبيلهما وذلك في شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفاً له من رسالة تغالى فيها فغالته المنية؛ ولم ينل الأمنية؛ وهذه سنة الله تعالى فيمن لا يحترم

جناب الألوهية، ولم يحرص لسانه من الوقوع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم؛ قوله سامحه الله: «تالله لو أحاطت بي كل خطية، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطية؛ حتى سخرت بمن في الوجود؛ وأنفت لآدم من السجود؛ وقلت إن الله تعالى لم يوحي في الفلك إلى نوح وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً؛ وبريت لقدار ثمود نبلاً؛ وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين؛ وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها؛ وافتريت على العذراء البتول فقذفتها؛ وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة؛ وأبغضت كل قرشي؛ وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي؛ وقلت إن بيعة السقيفة، لا توجب إمامة الخليفة؛ وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة؛ وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الشريد الأعفر؛ وغادرت الوجه من الهامة خضيباً؛ وناولت من قرع سن الحسين قضيباً، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً؛ وبقبر الإمام المهدي عائذاً، لأذن لمقالتي أن تسمع؛ وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أني مقترف؛ وبالذنب معترف.

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم، ورحمة الله تعالى وبركاته».

وكتب مع ابن له صغير آخرة:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... ورحمة منكم أنجى من السفن
وصادفنا سهام كلنا غرض ... وعطفة منكم أوفى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن ... والطرف يرهص بعد الركض في سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون منّ عليهم لا ولا أثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... كلتا الحياتين من نفس ومن بدن

وصبية كفراخ الورق من صغر   لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة   والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين!

ومما كتب به من السجن:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا؟   فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائر   ولا اهتدي حتى أرى للرضا صبحا!

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه».

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا؛ ولعطية هذا ابن أديب كاتب، وهو أبو طالب عقيل بن عطية؛ ومن نظمه في رجل تعشق قينة كانت ورثت مالاً من مولاها فكانت تنفق عليه منه؛ فلما فرغ المال ملها. فقال أبو طالب:

لا تلحه إن مل من حبها   فلم يكن ذلك عن ود
لما رآها قد صفا ما لها   قال صفا الوجد مع الوجد!

ويروى أن الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن:

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال الوزير مجيزاً له:

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن:

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال الوزير:

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية، رحم الله الجميع بمنّه.

غزو إفريقية ثانياً وفتح المهدية وغيرها من الثغور

كانت بلاد إفريقية بيد بني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها. وفي هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم، وكثر التنازع بينهم وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الأقطار، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما. ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهي يومئذٍ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناد، ففر الحسن عنها إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر.

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوته الأولى إلى إفريقية خرج إليه الحسن بن علي هذا وصحبه وصار في جملته، فكان الحسن يغريه بغزو إفريقية واستنقاذها من يد العدو.

وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلا أنه كان ينتظر إبان الفرصة. فاتفق أن فرنج صقلية أوقعوا بأهل زويلة ـ وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان ـ وقعة شنيعة، حتى أنهم قتلوا النساء والأطفال! ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو.

فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه، ولا يكشف هذا الكرب غيره؛ فدمعت عيناه وأطرق، ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العسكر في السفر، وكتب إلى جميع نوابه في المغرب ـ وكان قد ملك العدوتين الأندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته إلى قرب مدينة تونس ـ فكتب إلى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبله

ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق؛ ففعلوا جميع ما أمرهم به؛ وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين؛ ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق؛ وطينوا عليها فصارت كأنها تلال.

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يؤم بلاد إفريقية.

وقال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن في هذه السفرة قد عزم على العبور إلى الأندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها، فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتقاض إفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهدية. فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاتي على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغذ السير إلى إفريقية؛ واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالاً.

ويبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد بتكبيرة واحدة، لا يتخلف منهم أحد كائناً من كان.

وقدم بين يديه الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان قد اتصل به كما قلنا، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان؛ وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينا وطريدة وشلندا.

فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم إلى الطاعة فامتنعوا. فقاتلهم من الغد أشد قتال. ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم، فأجابهم عبد المؤمن بأن لهم الأمان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة، وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين! وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله. فاستقر الأمر على

ذلك وتسلم البلد، وبعث إليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم، وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم؛ وأقام أهل تونس بها على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم! وعرض عبد المؤمن الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبى قتل.

وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار إلى المهدية وأسطوله يحاذيه في البحر، فوصل إليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة، وكان بالمهدية يومئذٍ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وقد أخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن، وامتلأت بالعساكر والسوقة؛ فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة؛ ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها. وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل إفريقية ما يخرج عن الإحصاء، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق محال القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر، وزندها متصل بالبر؛ وكانت الفرنج تخرج شجعانها إلى أطراف العسكر، فتنال منه ويعودون سريعاً؛ فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربي المدينة يمنعهم من الخروج، وأحاط الأسطول بها في البحر؛ وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وتطوف بها في البحر؛ فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال براً ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة وقال للحسن: «كيف نزلت عن مثل هذا الحصن!؟» فقال: «لقلة من يوثق به، وعدم القوت؛ وحكم القدر» فقال: «صدقت!».

وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات، وترك القتال؛ فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول: «متى حدثت هذه الجبال؟» فيقال: «هي حنطة وشعير!» فيتعجب من ذلك، وتمادى الحصار.

وفي مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسة وقصور إفريقية وما والاها، وفتح مدينة قابس بالسيف؛ وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلاداً أخرى؛

ثم أطاعه أهل مدينة قفصة، وقدم عليه صاحبها فوصله بألف دينار. وبالجملة فإنه استخلص في هذه المدة جميع بلاد إفريقية من أيدي القائمين بها.

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد ممداً لأهل المهدية، وكان هذا الأسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس، وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير إلى المهدية ليمدوا إخوانهم الذين بها، فقدموا في التاريخ المذكور؛ فلما قاربوا المدينة حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا على جانب البحر؛ فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم.

ونزل عبد المؤمن إلى الأرض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني، وكان أمراً عجيباً وفتحاً غريباً.

وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويئس أهل المهدية حينئذٍ من النجاة، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى آخر ذي الحجة من السنة، فنزل حينئذٍ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل؛ فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ودعاهم إليه، فقالوا: «ما جئنا لهذا وإنما جئنا نطلب فضلك» وترددوا إليه أياماً.

وكان من جملة ما استعطفوه به أن قالوا: «أيها الخليفة، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة إلى ملكك العظيم وأمرك الكبير، وإن أنعمت علينا كنا أرقاء لك في أرضنا!» فعفا عنهم - وكان الفضل شيمته - وأعطاهم سفناً ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم، ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير.

وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم». فأهلك الله الفرنج غرقاً.

وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشرة سنة. فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان يقال لهذه السنة سنة الأخماس.

وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوماً حتى رتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر والأقوات والرجال والعدد.

واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله؛ وأقطع الحسن بها إقطاعاً؛ وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده.

وصفت إفريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع؛ ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها.

وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة، وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد إفريقية مدة مديدة. والله تعالى أعلم.

توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب

وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب، فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السوس الأقصى في جهة الغرب بالفراسخ والأميال، طولاً وعرضاً. ثم أسقط في التكسير الثلث في الجبال والغياض والأنهار والسماخ والخزون والطرق، وما بقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك في المغرب عفا الله عنه.

بناء عبد المؤمن جبل طارق

كان عبد المؤمن رحمه الله ـ وهو بإفريقية ـ قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه، وهو جبل طارق، فبني وشيد حصنه. وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة، وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء

لما كان عبد المؤمن قافلاً من بلاد إفريقية بنى مدينة البطحاء، وسبب بنائه إياها أنه لما طالب بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خبائه إذا نام فأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر، وقال له: «دعني أبت الليلة في موضعك وأنم على فراشك، فإن فعلوا ما اتفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسي في حق المسلمين وأجري في ذلك على الله! وإن حصلت السلامة فمن الله تعالى، ويكون أجري على قدر نيتي!» فبات على فراشه، فاستشهد في تلك الليلة. فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلاً على فراشه، فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد، فسارت الناقة يميناً وشمالاً حتى بركت وحدها، فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها، وأخذ بزمام الناقة فأزيلت عن مبركها، وحفر قبره فيه ودفن، وبنيت عليه قبة، وبنى بإزاء القبة جامعاً.

ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد، وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب، فقبر الشيخ هنالك مزارة عند أهل تلك البلاد إلى اليوم قاله في القرطاس.

ولما دخل عبد المؤمن إلى تلمسان في هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومي فسجنه ثم سمه من جرعة لبن هلك بها من ليلته.

عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق والسبب في ذلك

كان عبد المؤمن ـ وهو بإفريقية ـ قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان، وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها، وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن يكيت لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله.

فكتب عبد المؤمن إلى عماله بالأندلس يخبرهم بفتح إفريقية عليه وأنه واصل إليهم. فلما نهض من تلمسان في رجعته هذه عدل إلى طنجة فدخلها في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها، فعبر منها إلى الأندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين، واستشرف منه أحوال الأندلس، ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الأندلس، فنهض إليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص الهنتاتي من قرطبة في جيش كثيف من الموحدين، ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى، وخرج الفنش من طليطلة لإغاثته فوجده قد فتح. وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله، وقتل من عسكره ستة آلاف، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة وإشبيلية.

وفي هذه السنة ملك الموحدون بطليوس، وباجة، ويابورة؛ وحصن القصر؛ فولى عليها عبد المؤمن محمد بن علي بن الحاج وعاد إلى مراكش.

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن
عليه بمراكش والسبب في ذلك

تقدم لنا أن عبد المؤمن لم يكن من المصامدة، وإنما كان من كومية إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر، وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط، إلى أن استدعاهم عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

والسبب في ذلك أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند إليه، ولا عشير يثق به ويعتمد عليه، أرسل في خفية إلى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرتهم، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم، ويأتوه في أحسن زي وأكمل عدة، وسرب إليهم الأموال والكسى؛ فاجتمع منهم أربعون ألف فارس، ثم أقبلوا إلى عبد المؤمن - وهو بمراكش - برسم خدمته، والقيام بين يديه.

ولما دخلوا أرض المغرب تشوش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل، من غير أن يتقدم لهم سبب ظاهر، وتقول الناس الأقاويل، فسار جيش كومية حتى نزلوا على وادي أم الربيع، وتسامع الموحدون بإقبالهم فارتابوا منهم، وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم، فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاتي أن يخرج إليه في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم، فسار حتى لقيهم على وادي أم الربيع فقال لهم: «ما أنتم أسلم لنا أم حرب؟» قالوا: «بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمنين، نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه». فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن الخبر، فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا إلى لقائهم ففعلوا واحتفلوا لذلك.

وكان يوم دخولهم مراكش يوماً مشهوداً، فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية من أهل الديوان، وجعلهم بين قبيلة تينملل والقبيلة التابعة لهم،

وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه إذا خرج ويقومون على رأسه إذا جلس، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم إلى انقراضها. والله غالب على أمره.

استعداد عبد المؤمن للجهاد

وإنشاؤه الأساطيل بسواحل المغرب ومايتبع ذلك من وفاته رحمه الله

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وإفريقية والأندلس وطاعت له سائر الأقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والأمصار تفرغ لشأنه، وتاقت نفسه للجهاد، فعزم على غزو بلاد الفرنج براً وبحراً، فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه، فأنشىء له منها أربعمائة قطعة، فمنها بحلق المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدية؛ مائة وعشرون قطعة، ومنها بطنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف مائة قطعة؛ ومنها ببلاد إفريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة.

ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد، وأمر بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جدية! فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة، وفي خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية كما مر.

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة، فوصل إلى رباط سلا فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير، واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن

قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس! ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس، ومائة ألف راجل! فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا، من عين غبولة إلى عين خميس؛ إلى حلق المعمورة.

فلما استوفيت لديه الحشود، وتكاملت لديه الجنود والوفود؛ كان المعنى الذي أشار الله القائل:

إذ تـم أمـر بـدا نـقـصـه ترقـب زوالاً إذا قـيـل تـم

فابتدأ بعبد المؤمن مرضه الذي توفي منه، وتمادى به ألمه فخاف أن يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد وإسقاط اسمه من الخطبة، لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة.

وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكتب بذلك إلى جميع طاعته. وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفي ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك، وحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر الإمام المهدي رحمه الله، فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقضي عزه.

ونقل ابن خلكان في كيفية عزل ولي العهد وجهاً[1] آخر، قال ناقلاً من خط العماد بن جبريل: «أن عبد المؤمن كان في حياته عهد إلى أكبر أولاده، وهو محمد؛ وبايعه الناس بعد تحليف الجند له، وكتب ببيعته إلى البلاد؛ فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر، لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة؛ من إدمان شرب الخمر، واختلاف الرأي، وكثرة الطيش؛ وجبن النفس. ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام. واضطرب أمره

---

(1) على هذا الوجه اقتصر صاحب المعجب طبع سلا صحيفة 142. والوجه الأول ذكره صاحب القرطاس وابن الأثير في تاريخه جزء 11 صحيفة 117.

واختلف الناس عليه فخلع. وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً، وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان الذي سعى في خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابني عبد المؤمن، ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين، وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي فتأخر منهما أبو حفص عمر، وسلم الأمر إلى أخيه أبي يعقوب يوسف، فبايعوه الناس واتفقت عليه الكلمة. والله تعالى أعلم.

بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: «كان عبد المؤمن عند وفاته شيخاً نقي البياض، قال: «ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخاً معتدل القامة عظيم الهامة، أشهل العينين، كث اللحية؛ شثن الكفين؛ طويل القعدة؛ واضح بياض الأسنان؛ بخده الأيمن خال».

وكان رحمه الله فصيحاً فقيهاً عالماً بالأصول والجدل والحديث مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، ذا حزم وسياسة وإقدام في الحرب ومهمات الأمور، سري الهمة؛ ميمون النقيبة، لم يقصد قط بلداً إلا فتحه، ولا جيشاً إلا هجمه. محبّاً لأهل العلم والأدب، مكرماً لوفادتهم؛ منفقاً لبضاعتهم. ذكر العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما أنشده:

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار عليه أن يقتصر على هذا البيت؛ وأمر له بألف دينار.

وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذي تجاذباه في أمر الجارية التي أطلت في الشباك، وذلك دليل على سراوة طبعه، وخفة روحه. رحمه الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة، ورضى من الشيخ أبي حفص الهنتاتي خاصة؛ واستقل في رتبة وزارته.

وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم أن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الأول سنة ستين وخمسمائة، وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بسنتين؛ لأنه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين، وامتنع من بيعته أخواه: السيد أبو محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة؛ فكف عنهم، ولم يطالبهم ببيعته، وتسمى بالأمير؛ ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس.

وذكر ابن مطروح في تاريخه أنه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف بإشبيلية، فأخفى أصحابه موته، وأرسلوا إلى يوسف؛ فوصل من إشبيلية إلى سلا في أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته إلا ناس قليلون، فلم يلتفت إليهم.

وكان أول شيء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد إلى بلادهم وقبائلهم؛ وكتب إلى البلاد بتسريح المساجين وتفريق الصدقات في جميع عمله، وتسمى بالأمير، ثم ارتحل إلى مراكش فدخلها وأقام بها؛ وكتب إلى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس؛ ما خلا قرطبة وبجابة، فإن ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك؛ وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف في أقطار

البلاد، وأدان له من بالعدوتين من العباد؛ وفرق الأموال في القبائل والأجناد.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعين؛ وقدم معهما أشياخ بلديهما، وفقهائهما؛ فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالأموال والخلع، وأحسن إليهم.

وفي هذه السنة ثار مرزدغ الصنهاجي من صنهاجة مفتاح. وضرب السكة باسمه. وكتب فيها «مرزدغ الغريب، نصره الله عن قريب». وكانت ثورته ببلاد غمارة، فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة، فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقاً كثيراً وسبى، فبعث إليه أمير المؤمنين يوسف جيشاً من الموحدين، فقتل وحمل رأسه إلى مراكش.

وفي سنة ستين وخمسمائة كانت وقعة الجلاب بالأندلس بين السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش، وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفاً، فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج بأجمعهم، وكتب السيد أبو سعيد بالفتح إلى أخيه أمير المؤمنين يوسف.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لأخيه السيد أبي زكرياء، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، ثم أدال منه بأخيه السيد أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبي عبد الله على وزارته؛ وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة.

ثم نظر الموحدون في وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا: «الحمد لله وحده» لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم. والله أعلم.

ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة ثار سبع بن منغفاد، وسماه ابن أبي زرع يوسف بن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة. وعظمت الفتنة في قبائلها، وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة، فبعث إليهم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين، إلى نظر الشيخ أبي حفص الهنتاتي، ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة. فخرج إليهم أمير المؤمين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم، وقتل سبع بن مغفاد وحمل رأسه إلى مراكش وانحسم داؤهم؛ وعقد يوسف لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم.

وفي سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المؤمن واللقب بأمير المؤمنين، وذلك في جمادى الآخرة منها، وخاطب العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم في ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس؛ فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

وفي سنة أربع وستين بعدها وفد عليه أهل الأمصار من إفريقية والمغرب والأندلس: القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والأشياخ والأعيان برسم التهنئة والمطالعة بأحوال بلادهم، فوصلت الوفود إلى مراكش؛ فدخلوا عليه وهنؤوه بالخلافة؛ ووصل الجميع كل على قدره، وأوصاهم بما اقتضاه الحال. وكتب لهم الظهائر بمطالبهم وإصلاح شؤونهم، وانصرفوا شاكرين.

وفي هذه السنة أيضاً بعث أمير المؤمنين الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيوش الموحدين إلى الأندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو، واحتفل أمير المؤمنين في ذلك فلما انتهوا إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه، فسار الشيخ أبو حفص إلى قرطبة.

وفي سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من قصر المجاز إلى طريف في عشرين ألفاً من الموحدين والمتطوعة، فدخلوا بلاد العدو. وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبا سعيد إلى بطليوس؛ فعقد الصلح مع الطاغية ابن أذفونش ـ وهو يومئذٍ أعظم ملوك فرنج الجزيرة ـ وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم إبراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فنزع عنه إلى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها، واستولوا على أكثر بلاده، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش وقد خف إلى الجهاد.

وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت[1] وكان الشروع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر من السنة المذكورة.

الجواز الأول لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبي حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش، وظهور المسلمين على عدوهم بها، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم، تاقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدو بها؛ وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من إفريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية، والسيد أبي عمران صاحب تلمسان.

وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعترضهم وسائر عساكرهم،

(1) جاء في كتاب الروض المعطار ـ أن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد بنى قنطرة تانسيفت وأن السيل أتى بعد ذلك فهدمها.

ونهض إلى الأندلس في مائة ألف من العرب والموحدين، واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران، فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفاً من بعض غزواته.

ولما نزل أمير المؤمنين يوسف بإشبيلية خافه محمد بن مردنيش، وحمل على قلبه فمرض ومات! وقيل إن أمه سمته لأنه كان قد أساء إلى خواصه وكبراء دولته، فنصحته فتهددها، وخافت بطشه فسمته! ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده وإخوته إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ـ وهو بإشبيلية ـ فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم، فأحسن إليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده في أعز منزلة؛ وصنع في وليمتها مهرجاناً عظيماً يقصر الوصف عنه.

ولما صفت لأمير المؤمنين يوسف الأندلس خرج من إشبيلية غازياً بلاد العدو؛ فنزل على مدينة له تسمى وبذة، فأقام محاصراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا، فراسلوه في تسليم المدينة، وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم؛ فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج، فارتووا وتقووا على المسلمين، فانصرف عنهم إلى إشبيلية، بعد أن هادنهم مدة سبع سنين.

فليعتبر الواقف على هذه القضية، وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون، ينسبون إلى الله تعالى ما لا يليق به من التثليث وأنواع الكفر، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم، ورجعوا إليه تعالى بالاضطرار الصادق، رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين؛ فلا ينبغي بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل في شدة أن ييأس من رحمة الله، فإنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87] والسر في الاضطرار. فإنه عند أرباب البصائر، هو اسم الله الأعظم الذي

إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين، فأنت أهل ذلك والقادر عليه.

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحدب، فخرج إليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح، وأثخن فيهم؛ ورجع إلى إشبيلية.

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة، شرع أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن في بناء جامع إشبيلية، فتم وصليت به الجمعة في ذي الحجة منها!.

وفي هذه السنة أيضاً عقد أمير المؤمنين الجسر على وادي إشبيلية بالقوارب وبنى قصبتها الداخلية، وبنى الزلاليق للسور، وبنى سور باب جوهر؛ وبنى الرصفان المتدرجة بضفتي الوادي، وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية، وأنفق في ذلك أموالاً لا تحصى.

ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنصرة بالسيف، وهزم جموعه في كل جهة.

ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه أبي الحسن وعلى إشبيلية لأخيه أبي علي.

وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة: أبو عمران؛ وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتي من قرطبة فهلك في طريقه ودفن بمدينة سلا، وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية.

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن فعقد لأبي علي على سجلماسة، ورجع أبو الحسن إلى قرطبة؛ وعقد لابني أخيه السيد أبي حفص: لأبي زيد منهما على غرناطة، ولأبي محمد على مالقة.

وفي سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بني جامع وزرائه وغربهم إلى ماردة.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله، وأغزاه مدينة أشبونة، فغنم ورجع.

وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى في الجهاد، وبالغ في نكاية العدو، وتقدم ابناه من الأندلس فأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية؛ واعتزم على الجهاد، وأخذ في استدعاء العرب من إفريقية، والله تعالى أعلم.

غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصة والسبب في ذلك

كانت قفصة من بلاد إفريقية قد استبد بها بنو الرند أواخر دولة صنهاجة من بني زيري بن مناد، كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملاً لهم بها، فتوارثها بنوه من بعده، فاستبدوا بها آخر الدولة؛ ولما غزا عبد المؤمن بلاد إفريقية استنزلهم في جملة من استنزل من الثوار بها. ولما مات عبد المؤمن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسمائة أن بعض بني الرند قد عاد إلى قفصة وثار بها فاضطربت لأجل ذلك أحوالها فنهض إليها في سنة خمس وسبعين بعدها، فانتهى إلى إفريقية، ونزل على مدينة قفصة؛ وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها، وظفر بابن الرند القائم بها فقتله، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ثم عاد إلى مراكش فدخلها في سنة سبع وسبعين بعدها. هكذا في القرطاس، ونحوه لابن خلدون في أخبار بني عبد المؤمن.

وذكر عند الكلام على بني الرند وجهاً آخر فقال: «كان عبد المؤمن قد ولى على قفصة عمران بن موسى الصنهاجي، فأساء إلى الرعية، فبعثوا عن

علي بن العزيز بن المعتز الرندي من بجاية وكان بها في مضيعة يحترف بالخياطة، فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه، وقدموا مكانه علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكرياء، فحاصره وضيق عليه وأخذه، وأشخصه إلى مراكش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولة بني الرند. والبقاء لله وحده» اهـ. كلامه فالله أعلم أي ذلك كان.

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أزكندر، فبناه على المعدن الذي ظهر هنالك.

الجواز الثاني لأمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة قدم عليه ولاة الأندلس ورؤساؤها يهنئونه بالإياب، فأكرم وفادتهم وانصرفوا.

ثم بلغه الخبر بأن أذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة، ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شقيلة. وأسكن به النصارى وانصرف.

فاستنفر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو، ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً، ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً؛ وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من إشبيلية في جموع الموحدين، ونازل طلبيرة فبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم.

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد، وولى على

الأندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه السيد أبي زيد على غرناطة، ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية، ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

وفي القرطاس: كان خروجه من مراكش في التاريخ المذكور على باب دكالة، قال برسم غزو إفريقية، فلما وصل إلى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جامع من إفريقية؛ فأعلمه بهدوئها وسكونها، فصرف عزمه إلى الأندلس. فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفي ثلاثين من ذي القعدة من السنة المذكورة، فنزل بظاهرها وبات هناك. ثم نهض يوم الجمعة الموالي له فوصل إلى مكناسة يوم الأربعاء السادس من ذي الحجة، فعيد بها عيد الأضحى خارجها. ثم ارتحل إلى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة، ففي اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى إلى سبتة، فأقام بها بقية الشهر المحرم، وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس؛ فجازت قبائل العرب أولاً، ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة؛ ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة، وأصناف البربر. ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز والرماة. فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد.

وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة، فنزل بجبل الفتح، ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، ثم سار إلى إشبيلية. فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج إليه ولده السيد أبو إسحاق ومعه فقهاء إشبيلية وأشياخها فبعث إليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل إليهم، فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم، فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا.

ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فانتهى إليها في السابع من ربيع الأول فنزل عليها، وأدار به الجيوش، وشدد عليها في

الحصار والقتال؛ وبذل المجهود إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع المذكور، فانتقل من موضع نزوله بجوفي شنترين إلى غربها، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سبباً؛ فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة، وشن الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها في جيوش الأندلس خاصة. وأن يكون رحيله نهاراً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل ليلاً، وصرخ الشيطان في محلة المسلمين، أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة، وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له، ورحلت طائفة منهم بالليل؛ ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحاق وأقلع من كان موالياً له، وتتابع الناس بالرحيل؛ وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحداً إلا يسيراً من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله، وينزلون لنزوله؛ وإلا - قواد الأندلس فإنهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء، فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفرداً في عبيده وحشمه، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد؛ وخرج جميع من فيه خرجة منكرة، وهم ينادون: الري الري، أي اقصدوا السلطان؛ فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا إلى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها، فبرز إليهم وقاتلهم بسيفه، حتى قتل ستة منهم، ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه! ولما طعن وقع بالأرض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والأجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الأخبية، واشتد القتال بينهم، وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بالسيف حتى أدخلوهم المدينة؛ وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة. وركب أمير المؤمنين يوسف

وقد أنفذته الطعنة؛ وارتحل الناس ولا يدرون أين. ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة إشبيلية، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور إلى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله؛ قاله ابن مطروح.

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء، فحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر أبيه، وقيل إنه لم يمت حتى وصل إلى مراكش. وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذي يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الأمور بين يديه من يوم طعن إلى أن مات. قالوا وكتم ولده موته حتى وصل إلى مدينة سلا فأفشاه.

وكان قبل موته بأشهر كثيراً ما ينشد قول الشاعر ويردده.

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتني ذوات الأعين النجل

ورثاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجير بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها:

جل الأسى، فأسل دم الأجفان ماء الشؤون لغير هذا الشان

بقية أخبار أمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه؛ أعين؛ إلى الطول ما هو؛ في صوته جهارة؛ رقيق حواشي الطبع حلو الألفاظ؛ حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب؛ وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام؛ صرف عنايته إلى ذلك، ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته بها. وكان فقيهاً حافظاً متفنناً، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف؛ فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقيه العلوم، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان يحفظ القرآن

الكريم مع جملة صالحة من الفقه؛ ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً.

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل، كان متحققاً بجميع أجزاء الحكمة، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره؛ ولابن طفيل هذا تصانيف كثيرة.

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة، ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار؛ ومن جملتهم القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد.

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية، بعيد الهمة، جماعاً مناعاً؛ ضابطاً لخراج مملكته، عارفاً بسياسة رعيته، وكان سخياً جواداً في محل السخاء والجود؛ قد استغنى الناس في أيامه؛ وكان من ضبطه وسياسته، ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيبته نواب؛ وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك.

قال ابن خلكان: «والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه».

ومما يستطرف من أخباره رحمه الله: أن الأديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكرواني ـ وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحي فاس ـ كان نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، وتقدم في هذا الشأن وله فيه تآليف، وكان مع ذلك صاحب نوادر، جالس بها عبد المؤمن؛ ثم ولده يوسف؛ ثم ولده يعقوب.

فمن نوادره: أنه حضر يوماً إلى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور؛ وحضر إليه أيضاً الطبيب سعيد الغماري، فقال أمير

المؤمنين لبعض خدمه: «انظر من بالباب من الأصحاب» فخرج الخادم ثم عاد إليه فقال: «يا سيدي به أحمد الكرواني وسعيد الغماري» فقال أمير المؤمنين يوسف: «من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة» فبلغ ذلك الكرواني: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه! أعجب منهما والله، خليفة من كومية!» فيقال إن أمير المؤمين يوسف لما بلغه ذلك قال: «أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له» ومن شعر الكرواني من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع:

إن الإمام هو الطبيب وقد شفا ... علل البرايا ظاهراً ودخيلا
حمل البسيطة وهي تحمل شخصه ... كالروح يوجد حاملاً محمولا!

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين في التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، ورجع بالناس إلى إشبيلية فاستكمل البيعة، واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى، فاستولى على بعض الحصون، وأثخن في بلاد الكفار؛ ثم أجاز البحر إلى الحضرة.

ولقيه بقصر مصمودة السيد أبا زكريا ابن السيد أبي حفص، قادماً من تلمسان، مع مشيخة بني زغبة من عرب هلال؛ ومضى إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل، ونشر الأحكام» اهـ وفيه نوع مخالفة لما قدمناه.

وقال ابن أبي زرع: لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب، وكتب إلى جميع بلاده، بتسريح السجون ورد المظالم التي

ظلمها العمال في أيام أبيه؛ وأكرم الفقهاء، وراعى الصلحاء وأهل الفضل، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً جمة؛ وكان أول شيء حدث في دولته شأن بني غانية المسوفيين. أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها، فلنأت بشيء من ذلك.

خروج علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور

قد تقدم لنا في أخبار الدولة اللمتونية أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس وهي ميورقة ومنورقة ويابسة محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية - وهي أهمهم - فتوارثها بنوه من بعده، إلى أيام يوسف بن عبد المؤمن؛ فبعث إليه محمد بن إسحاق بن محمد المسوفي المذكور بالطاعة، فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن، وبعث إليه قائده علي بن الروبرتير ليختبر أمره؛ ويعقد له البيعة عليه، ويؤكد الأمر في ذلك.

وكان لمحمد بن إسحاق المذكور عدة إخوة يساهمونه في الرياسة، فلما انتهى إليهم ابن الروبرتير، وعلموا الأمر الذي قدم لأجله، أنكروا على أخيهم ذلك لأنه لم يكن أعلمهم بمكاتبة يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجياً دونه، وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير، وقدموا مكانه أخاهم علي بن إسحاق بن محمد؛ ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب المنصور، فركب علي بن إسحاق أسطوله وطرق بجاية على حين غفلة من أهلها؛ وعليها يومئذٍ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن.

وكان خارجاً في بعض مذاهبه - فاستولى عليها ابن غانية في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وحكى ابن أبي زرع في استيلاء ابن غانية على بجاية وجهاً آخر قال: دخل الميورقي ـ وهو علي بن إسحاق المذكور ـ مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة، والناس في صلاة الجمعة.

وكان أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة، فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة، ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد إلى الجامع الأعظم، وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه» قال: «وأقام بها سبعة أشهر، ثم استرجعت من يده» قال: «ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة» والله أعلم.

ثم استولى علي بن إسحاق على الجزائر، ثم على مازونة؛ ثم على مليانة، ثم على القلعة، ثم نازل قسنطينة فامتنعت عليه.

واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية، وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي. فوصل السيد أبو زيد إلى إفريقية وشرد ابن غانية عنها إلى الصحراء في أخبار طويلة.

ثم عاود ابن غانية الإجلاب على بلاد إفريقية، وظاهره على ذلك قراقوش الغزي، من موالي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي صاحب مصر، وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها.

وبلغ المنصور أن ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل إلى فاس فأراح بها، ثم سار إلى رباط تازا، ثم سار على التعبية إلى تونس.

وجمع ابن غانية من إليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزي صاحب طرابلس، فسرح إليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد

أبي يوسف يعقوب ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، فلقيهم ابن غانية في جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون، وقبل جماعة من وجوههم، وأسر علي بن الروبرتير في آخرين، وامتلأت أيدي العرب من أثاثهم وأسلابهم.

ووصل سرعان الناس إلى المنصور وهو بتونس، فنهض إليهم في الحال ونزل القيروان، ثم أغذ السير إلى الحامة فالتقى الجمعان، وأنشبوا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم.

ثم صبح المنصور مدينة قابس - وكانت في يد قراقوش - فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس، وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قفصة فنازلها أياماً، حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها، وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة.

ولما فرغ من أمر قفصة نهض إلى عرب إفريقية، ففتك بهم واستباح حللهم وأموالهم وشردهم في كل وجه، ثم بعد ذلك جاؤوه تائبين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم إلى المغرب الأقصى، ورجع إلى مراكش، فدخلها في رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقية ثم منها إلى المغرب الأقصى والسبب في ذلك

اعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطناً لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم.

ولما جاءت الملة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش

المسلمين من العرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحف إليه من أقطار الأرض، لكن العرب الداخلون إلى أرض المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار، ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب، وإن بقي القليل منهم به فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية، ويسكنون القصور دون الخيام؛ فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذٍ بقبائلهم وخيامهم، ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم، كما هو شأنهم اليوم؛ لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية، ويعدل بهم إلى الحضارة ولا بد، فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأساً؛ أو قليلة جداً لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل، وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال؛ واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة، فدخلت العرب أرض إفريقية واستوطنها بحللهم وخيامهم.

ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم إلى المغرب الأقصى، فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك، وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربي، وأمة البربر أهل اللسان البربري، بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا.

واعلم أن أمة العرب تنقسم أولاً إلى قسمين: عدنان وقحطان، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان إلى شعبين عظيمين، فأما عدنان وهم الإسماعيلية ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فينقسمون إلى ربيعة ومضر، وأما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون إلى حمير وكهلان. هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين. وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوباً

أخر، لكنا لم نعتبرها إما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جداً واندراجها فيمن ذكرناه.

ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الأربعة إلى قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها، لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول: من جملة قبائل مضر:

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر.

ومن قبائلها أيضاً بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور المذكور في النسب السابق. وقد نسبت الخنساء جشم هذا إلى جده، فقالت تهجو دريد بن الصمة:

معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضاً بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضاً.

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين: بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

واعلم أن هؤلاء القبائل الأربعة التي ذكرناها هي التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت إلى إفريقية والمغرب، وقد يضاف إليهم غيرهم من قبائل العرب، لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة.

وأما خبر دخولهم إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بني العباس، وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد، فبنوا سليم مما يلي المدينة المنورة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف، ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين وعمان، وصاروا جنداً للقرامطة، ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على

ذلك بنو سليم وبنو هلال. ثم انتقلت دولة العبيديين من إفريقية إلى مصر، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم، وردوهم على أعقابهم إلى البحرين، ونقلوا أشياعهم من بني سليم وبني هلال. فأنزلوهم بصعيد مصر في العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك، وكان لهم أضرار بالبلاد؛ ولما انتقلت الدولة العبيدية من إفريقية إلى مصر كما قلنا استنابوا على إفريقية بني زيري بن مناد الصنهاجيين فملكوها، وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم، ويؤدون إليهم إتاوة معلومة وطاعة معروفة.

ولما انساق ملك إفريقية إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة، وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذٍ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله. والمعز هذا هو الذي انتقل إلى مصر وبنى مدينة القاهرة.

وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي صاحب مصر كما كانت أسلافهما؛ ثم إن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك في أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثاً بالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنياً؛ فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل، وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان، وقطعوا من الأذان حي على خير العمل.

وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي والد المستنصر، فكاتب المعز بن باديس في ذلك، فاعتذر إليه بالعامة، فأغضى عنه.

واستمر ابن باديس على إقامة الدعوة لهم؛ والمهاداة معهم، وهو في أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ويستميله، ويعرض ببني عبيد وشيعتهم ويغض منهم.

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وولي الوزارة

بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري، أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه فلاحاً بها. فلما ولي الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء: كان يقول في كتابه إليهم: عبدكم! وصار يقول: في كتاب اليازوري: صنيعتكم! فحقد ذلك عليه، وصارت القوارص تسري من بعضهم إلى بعض، إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدي ووزيره اليازوري، فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وأحرق بنود المستنصر، ومحا اسمه من السبكة والطرز، ودعا للقائم العباسي خليفة بغداد؛ وجاءه خطابه وكتاب عهده، فقرىء بجامع القيروان، ونشرت الرايات السود؛ وهدمت دور الإسماعيلية.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته، ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس، فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال، وبني جشم الذين بالصعيد، وأن يتقدم إليهم بالاصطناع؛ ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلاً من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم؛ فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالاً بتلك القاصية، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها؛ وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك.

فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء؛ وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم: «قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآباق، فلا تفتقرون بعدها!».

وكتب اليازوري إلى المعز: «أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة، فنزلوا بها واستباحوها

وافتتحوا أمصارها، وأعجبتهم البلاد. فكتبوا لإخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه؛ وتقارعوا على البلاد؛ فحصل لبني سليم شرقها، ولبني هلال غربها، ثم انتشروا في أقطار إفريقية مثل الجراد، لا يؤمرون بشيء إلا أتوا عليه.

وبالجملة فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي إفريقية. ونازلوا أمصارها، واقتضوا من أهلها الإتاوة، وحضروا ابن باديس في مصره؛ وصاهرهم ببناته تأليفاً لهم، ومع ذلك فلم يجد شيئاً والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا.

قال ابن خلدون: «ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق، يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح؛ وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً واسمه محمد، وإنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة. فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد إلى إفريقية، وتحيلوا عليه في استرجاع أختهم جازية المذكورة، فطالبته بزيارة؛ أبويها، فأزارها إياهم؛ وخرج بها إلى حللهم، وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها، وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص، ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها؛ فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار حيث لا يملك أمرها عليهم، ففارقوه؛ ورجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي على خبر قيس وليلى، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني. مثقفة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل؛ والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما فقد منها الإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة.

وفي هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة، وفقدت فيه صحة الرواية

فلذلك لا يوثق به؛ ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم وضبط لأسماء رجالاتهم، وكثير من أحوالهم، لكنا لا نثق برواياتها؛ وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره، وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون؛ لتواترها بينهم.

وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر ابن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي، وبايع له بنو الجراح أمراء طيىء بالشام، وبعثوا عنه، فوصل إلى أحيائهم؛ وبايع له كافة العرب؛ ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة، فولي بعده ابنه شكر هذا، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي بعده ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه.

وقال ابن حزم: إن شكر بن أبي الفتوح لم يولد له قط، وإنما صار أمر مكة من بعده إلى عبد كان له.

وقال ابن خلدون: بل أخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبي الفتوح، وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات، وإن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

واعلم أن جازية بنت سرحان هذه كانت من بني دريد بن أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، فهي هلالية أثبجية دريدية.
ومن مزاعمهم: أنها لما صارت إلى إفريقية وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور، خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد، فأقامت

عنده مدة؛ ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه، فقامت عشيرة ماضي بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته. وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان، واستمرت العداوة بينهم إلى أيام الموحدين؛ فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد إلى إفريقية.

وأما سبب انتقالهم من إفريقية إلى المغرب الأقصى؛ فقد ذكرنا أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر اقترعوا على بلاد إفريقية، فكان لبني سليم شرقها؛ ولبني هلال غربها، ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقوا ملوكها بها.

وانضم إلى بني هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر، فعلت أيديهم على الجميع؛ واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدي رحمه الله، وثار ابن غانية ببلاد إفريقية كما تقدم، فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين؛ وأوقعوا بمقدمة المنصور، فنهض إليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولاً ثم بالعرب ثانياً، وقل جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحارى برقة، وانتزع تلك البلاد من أيديهم، ثم راجعوا بصائرهم، فأتوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى.

وكان الذين قاتلوه أولاً ثم راجعوا طاعته ثانياً هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا، وهم أصحاب غرب إفريقية، وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد؛ فلذلك بقي بنو سليم بأرض إفريقية.

ونقل المنصور رحمه الله بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فأنزل قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الأفيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر، فاستقروا بها وطاب لهم المقام، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأفيح ما بين سلا

ومراكش، وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل الدرن بها، فلم ييمموا بعدها قفراً، ولا أبعدوا رحلة.

واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم في عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما في حكمها، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب، وكان لجشم بلاد الحوز.

ثم اعلم أيضاً أن قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقي بأرض إفريقية والذين انتقلوا منهم إلى المغرب الأقصى كان رئيسهم في ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادي، من بني ذواد بن مرداس بن رياح فأقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر إلى إفريقية، وذلك في حدود التسعين وخمسمائة، وأبدأ وأعاد هنالك في الإجلاب مع الثوار، إلى أن هلك في بعض تلك المدة.

وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وأزغار إلى أن انقرضت دولة الموحدين، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدي وقتله سنة ثلاثين وستمائة.

ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم، وانضم إليهم بنو عسكر بن محمد المرينيون حين خالفوا إخوانهم بني حمامة بن محمد سلف الملوك منهم، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة أبو الملوك المرينيين، وقتل معه ابنه إدريس؛ فأوجدت رياح السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الثأر، فأثخنوا فيهم بعد أن ملكوا المغرب، واستلحموهم قتلاً وسبياً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المريني سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس الهضاب، وأسنمة الربا المتوسطة في

المرج المستبحر بأزغار؛ فصاروا إلى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة، وذهبت رياح أدراج الرياح. هذا خبرهم على الجملة.

وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فإن المنصور لما نقلهم إليها نقل معهم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم، ولم يكونوا من نسبهم، ولكنهم كانوا مندرجين فيهم، فكان يطلق على الجميع جشم، وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر؛ ثم من الأثبج منهم، وقرة من بني هلال أيضاً، والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر. فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى؛ ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا إلى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم.

فأما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة؛ وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، فهؤلاء القبائل الثلاثة أعني المقدم والعاصم وقرة هلاليون، وأما الخلط فهم بطن من بني عقيل بالتصغير.

قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني. الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور في الأنساب المتقدمة. فقد بان لك بهذا أن هذه القبائل الأربع أعني العاصم ومقدماً وقرة والخلط، ليسوا من بني جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب، وأن الثلاث الأول من بني هلال بن عامر، وأن الرابعة وهي الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولاً، والله تعالى أعلم.

ولنتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول: لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر، ثم تميز جمهورهم إلى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط.

فأما مقدم والعاصم فكانوا مع إخوانهم ببسيط تامسنا المذكور، وكان

للموحدين عليهم عسكرة وجباية، وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر بن المنصور.

ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخ بني جابر، كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعاً.

ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه، وكان رئيسهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد، وكان له تلون على الدولة في النفرة تارة والاستقامة أخرى، فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة، وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة؛ ولم يزل هذا دأبه، وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك. ومقاماته في الجهاد معه مذكورة وبقيت رياسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم وتلاشوا. والله خير الوارثين.

وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضاً، وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور، ويحيى بن الناصر بن المنصور؛ فكانوا شيعة ليحيى، ولما ولي الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابني عامر، وهما يومئذٍ شيخا بني جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم، وكانوا جميعاً معتقلين عند الرشيد.

وولي أمر بني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون، ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو، وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموحدي، وولي رياسة بني جابر بعده إسماعيل بن يعقوب بن قيطون، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هنالك صناكة من البربر الساكنين بقنته وهضابه، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى، إذا دهمتهم مخافة من السلطان.

قال ابن خلدون: والرياسة فيهم لهذه العصور - يعني أواخر المائة الثامنة - في ورديغة من بطونهم، قال: أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديغي ثم هلك، وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين، ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعمائة، ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه، ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين، ونازله السلطان عبد العزيز المريني وأحاط به وبهم؛ فلحق ببرابرة صناكة؛ ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم، وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة، فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن، فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته، ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرياسة عن بيته إلى غيرهم. والله تعالى مقلب الأمور.

وقد يزعم كثير من الناس أن ورديغة من بني جابر ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب إلى المغرب، كانت رياستهم يومئذٍ في أولاد جرمون على سائر بطون جشم، واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين، ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن استكثروا بهم في حروبهم، فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة، وخبوا ووضعوا في الفتن مع أعقاب الملوك من بني عبد المؤمن المتنازعين على الملك، وظاهروا البعض منهم على البعض وساءت آثارهم بالمغرب.

وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدي

جرمون بن عيسى السفياني، وكانت بينهم وبين الخلط عداوة، فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيه؛ وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعة في الخلافة بمراكش، ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حمدان شيخ الخلط ربما نذكر بعد؛ فصاروا إلى يحيى بن الناصر، وصارت سفيان إلى الرشيد.

ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين، ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقع له مع الرشيد، وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر، فقام يرقص طرباً؛ ثم حمل عليه وهو سكران وعربد وأساء الأدب، ثم أفاق فندم، وفر إلى محمد بن عبد الحق، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها؛ وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون، ثم خالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ورجع إلى آزمور فملكها، وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون، ففر أمامه ثم حضر معه بعد ذلك حركته إلى تلمسان، وقتل بحصن تامزردكت قبل مقتل السعيد بيوم واحد، قتلته الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة.

وقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون، وقتل ابن أخيه محمد بن كانون، وحضر مع عمر المرتضى الموحدي حركة أمان أيملولين سنة تسع وأربعين وستمائة، فرحل يعقوب عن السلطان، واختل عسكره بسبب ذلك؛ فرجع وأتبعه بنو مرين فكانت الهزيمة، ثم عفا له المرتضى عنها، ثم قتله مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثأر أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة، ولحقا بيعقوب بن عبد الحق المريني، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمٰن فعجز عن القيام بأمره، فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضاً، فقدم مسعود بن كانون فأقام شيخاً على سفيان، واستمرت حالهم مع الموحدين وبني مرين على هذا النحو من إخلاص الطاعة والنصرة تارة، والتمريض فيهما أخرى.

وقال ابن خلدون: «واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا» قال: «وأدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى».

وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلوا بأطراف تامسنا مما يلي آسفي، وغلبتهم الخلط على بسائطها الفسيحة، وبقي من أحيائهم الحارث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره. ويطلبون ضواحي بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس. ورياستهم في أولاد مطاع من الحارث، وطال عيثهم في ضواحي مراكش وإفسادهم، فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن المريني سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم، ثم استقدمهم في بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة؛ وشيخهم يومئذٍ منصور بن يعيش من أولاد مطاع، فتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم، وأودع الآخرين سجونه؛ فذهبوا مثلاً لآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولي عدد وقوة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم، ولما ولي العادل بن المنصور الموحدي خالفوا عليه وهزموا عساكره، وبعث هلال بيعته إلى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة، وتبعه الموحدون على ذلك، ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره، وتحيزت أعداؤهم إلى يحيى بن الناصر منازعه، ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون إلى أن هلك في حركته سنته، وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراكش، وهزم سفيان واستباحهم، ثم هلك هلال بن حميدان فولي مكانه أخوه مسعود بن حميدان، ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله في جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وولي أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه إلى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها، وخرج

الرشيد إلى سجلماسة، ثم عاد إليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها، ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر إلى بني معقل عرب الصحراء، فتقبض الرشيد على وشاح وعلي ابني هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة، ثم أطلقهم ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين. ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته إلى بني عبد الواد أصحاب تلمسان، وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذٍ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم، ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم، ثم رجع عواد إلى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته تلك.

ثم كانت واقعة أم الرجلين لبني مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة؛ فنزع علي بن أبي علي إلى بني مرين، ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين، وكانت الرياسة فيهم أول دولة بني مرين لأبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، وأصهر إليه السلطان يعقوب بن عبد الحق، فأنكحه مهلهل ابنته عائشة التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب، ولم يزل مهلهل كبيراً عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة، ثم قام بأمر الخلط ابنه عطية، وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه السلطان أبي الحسن، وبعثه السلطان أبو الحسن سفيراً عنه إلى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ولما هلك عطية قام بأمر الخلط ابنه عيسى بن عطية، ثم ابن أخيه رمام بن إبراهيم بن عطية، وهو الذي بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان، والقرب من مجلسه إلى أن هلك؛ فولي أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن إبراهيم، ثم أخوهما سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهم مبارك بن

إبراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان المريني ومن بعده، إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم المريني، واستولى على المغرب أخوه السلطان عبد العزيز، وأقطع ابنه ناحية مراكش، فكان إبراهيم بن عطية هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك المذكور. وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهنتاتي وقتله، فقتل معه مبارك بن إبراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين، وولي ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط.

قال ابن خلدون: «إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح، زيادة على العز والدعة، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف، والله غالب على أمره» اهـ.

ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدي انحاشت الخلط إليه، وأظهروا الخدمة والنصيحة، وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسي عنها؛ فذهب أبو حسون المذكور إلى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته، وقدم معه منهم عسكر جرار إلى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدي عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة، فلما استقل بالأمر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة، ونقل أعيانهم إلى مراكش واتخذهم رهائن عنده.

ولم يزل الأمر كذلك إلى دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور

السعدي المعروف بالذهبي، فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادي المخازن وإبلاءهم الإبلاء الحسن؛ فاختار النصف منهم وردهم إلى الجندية، وأبقى النصف الآخر في غمار الرعية، ونقلهم إلى أزغار فاستوطنوه؛ فعاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد، ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور السعدي، فضرب عليهم مغرماً سبعين ألفاً، فلم يزيدوا إلا شدة؛ فضرب عليهم بعثاً إلى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك؛ فبعث إليهم القائد موسى بن أبي جمادة العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة، ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق؛ ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم، ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التي ملأت الأفواه وأسالت من الجفون الأمواه؛ وهي قتلتهم ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبا عبد الله سيدي محمد العياشي المالكي رحمه الله. فما زلنا نسمع أن قبيلة الخلط إنما سلبوا العز منذ قتلهم للولي المذكور؛ وكان ذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين وألف، والله تعالى أعلم.

الخبر عن بني معقل عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم

قال ابن خلدون: «هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر من زغبة الهلاليين في مواطنهم بقبلة تلمسان؛ وينتهون إلى البحر المحيط من جهة الغرب، وهي ثلاثة بطون. ذوي عبيد الله؛ وذوي منصور، وذوي حسان.

فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة، ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل، مثل تازا وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمعدن

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط؛ وينزل شيوخهم بلاد بول قاعدة السوس، فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين، واعترضتهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلالين منذ عهد قديم؛ ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار فعفوا وكثروا وأثروا في صحارى المغرب الأقصى؛ فغمروا رماله وتقلبوا في فيافيه، وكانوا هنالك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم؛ وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب. فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء في القفار، وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لاكفاء له؛ وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً. ثم توات؛ ثم بودة، ثم تمنطيت؛ ثم واركلان، ثم تاسبيبت، ثم تيكرارين شرقاً، وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها. فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم، ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً.

وكانوا في تلك المدة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل، ويسمونها جمل الرحيل، وكان لهم الخيار في تعيينها؛ ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى. ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم.

وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى

وعددهم قليل كما قلنا، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم، فإن فيهم من فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر، وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان أحياء كبيرة، يظغنون مع بني معقل بجهات سلجماسة ووادي ملوية، ولهم عدد وذكر؛ وفيهم الصباح من الأخضر؛ ويقولون إنهم من ولد أخضر بن عامر وعامر هذا هو ـ والله أعلم ـ من ولد رياح الهلاليين، وفيهم المهاية من عياض إحدى بطون الأثبج الهلاليين؛ وفيهم العمور من الأثبج أيضاً، وفيهم بطون أخر من بني هلال وبني سليم وغيرهم.

وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة، والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح؛ وهم ـ أعني بني معقل ـ يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضاً بصحيح؛ لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة.

هكذا ذكر ابن خلدون، لكنه لم تكلم على جهينة إحدى بطون قضاعة؛ وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملؤوها. قال: «ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة وأخرجوهم منها؛ فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة، اهـ كلامه. فعلى هذا لا يبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بني هلال إلى بلاد المغرب وأوطنوا صحراءه، وهم بنو معقل المذكورون؛ والناس مصدقون في أنسابهم. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

ثم قال ابن خلدون: «والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن. فإن في اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل؛ ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير؛ وهو معقل بن

كعب بن عليم بن جناب وينتهي نسبه إلى قضاعة والآخر من بني الحارث بن كعب أصحاب نجران؛ الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران في الجاهلية والإسلام، وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب؛ وينتهي نسبه إلى كهلان» قال: «والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر؛ وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية لمجاورتهم في الوطن» قال: ومن إملاء نسابهم أن معقلاً جدهم له من الولد سجير ومحمد؛ فولد سجير: عبيد الله، وثعلب؛ فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم؛ ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر، وولد محمد: مختاراً ومنصوراً وجلالاً وسالماً وعثمان؛ فولد مختار بن محمد حسان وشبانة، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى، ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك، ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية في ذوي حسان ينتجعون معهم؛ وولد منصور بن محمد حسيناً وأبا الحسين وهما شقيقان، وعمران ومنبا وهما شقيقان أيضاً وهما الأحلاف، ويقال لعمران العمرانية؛ ولمنبا المنبات؛ ثم يقال لجميع البطون الأربعة ولد منصور بن محمد ذوي منصور، وهم إحدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه».

فهذه أصول عرب المغرب الأقصى وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه، وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ إمام الفن أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون؛ ومن جمهرة الأنساب لابن حزم. وزدنا ما يحتاج منها إلى البيان بياناً والله تعالى الموفق.

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله، فإنه لما رجع من إفريقية إلى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة رفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد، وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عندما بلغهما خبر الوقعة التي كانت على مقدمة

المنصور بإفريقية حدثا أنفسهما بالتوثب على الخلافة، فلما قدما عليه بالتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملأ أمرهما ثم قتلهما، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية. وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع المنصور في إدخال ساقية الماء إلى مراكش ثم تاقت نفسه إلى الجهاد فكان منه ما نذكره.

الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبي زرع: وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها؛ وهي أولى غزواته، فعبر من قصر المجاز إلى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين، وشن الغارات على مدينة أشبونة وأنحائها؛ فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكاية؛ وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألفاً من السبي، فدخل فاساً في آخر رجب من السنة المذكورة.

مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله؛ فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها.

وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهدم الكنيسة التي بنواحيه، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذٍ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريخة إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة[1] يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام، وأوفد عليه أبا الحارث عبد الرحمٰن بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام، وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث صلاح الدين عبد الرحمٰن هذا إلى يعقوب المنصور طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، ولمنازلة الثغور التي ذكرنا.

وبعث معه إلى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية، وسروج عدة مثقلة، فوصل إلى المغرب فصادف المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقيه وأدى الرسالة وقدم الهدية.

وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحيم البيسني المعروف بالقاضي الفاضل، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، وبعده: الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وهو كتاب طويل.

---

(1) صوابه ست وثمانين [راجع كتاب الروضتين للمقدسي ج2 ص 173].

ولما وقف عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك، وأسرها في نفسه، وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة، ورده إلى مرسله ولم يجبه إلى حاجته، ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام. والله تعالى أعلم.

قال ابن خلدون[1]: وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذٍ بالأساطيل الجهادية. وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تزجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلى والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً ... تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتاً، فأعطاه بكل بيت ألفاً؛ وقال له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين.

عود المنصور إلى إفريقية والسبب في ذلك

لما قدم المنصور من الأندلس إلى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت إليه الأخبار بأن ابن غانية قد ظهر بإفريقية، فنهض إليها من فاس في ثامن شعبان من تلك السنة، فدخل تونس في أول ذي القعدة منها فألقى بلاد

(1) هذا النقل غير موجود في ابن خلدون سواء في النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة 1284 أو المطبوعة بالجزائر سنة 1263 [1847] ولعل المؤلف نقله عن نسخة أخرى خطية وربما تكون هي النسخة المخطوطة التي كان وقف عليها عند أحد عمال الغرب المعروف بولد الضاوية وهي التي استعملها عند جمعه لهذا التاريخ اهـ.

إفريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها إلى الصحراء حين سمع بقدومه.

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الأندلس، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر إفريقية، فاغتنموا الفرصة فيها؛ واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه، وكتب إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم في أثر كتابه، فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة، فخرج بهم في جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الأندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفاً من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه في القطائن خمسون علجاً في كل قطينة، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وفي هذا الشهر رجع المنصور من إفريقية فانتهى إلى تلمسان فأقام بها إلى آخر السنة المذكورة، وفي فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهي سنة آكرواو خرج المنصور من تلمسان إلى فاس وهو مريض، فكان يركب في آكرواو، فدخل فاساً وأقام بها مريضاً سبعة أشهر حتى أبل من علته، ثم نهض إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد، وكان ما نذكره إن شاء الله.

الغزوة الكبرى بالأرك من بلاد الأندلس

قال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه إلى خمس سنين، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثاً فظيعاً؛ فانتهى الخبر إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب، واحتفل في ذلك وعبر البحر إلى الأندلس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ واتصل بالفرنج عبوره إليهم فجمعوا خلقاً كثيراً من أقصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه.

قال ابن خلكان: وقد رأيت بدمشق جزء بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حموية السرخسي، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة؛ وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغي ذكره هٰهنا.

قال: لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس، وقاعدة مملكته يومئذٍ طليطلة، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم يعقوب المنصور ـ وهو يومئذٍ بمراكش ـ على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج، وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور، وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها. فاتفق أنه مرض مرضاً شديداً حتى يئس منه أطباؤه، فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش. وحمل يعقوب المنصور إلى مراكش وهو مريض، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها، وأغاروا على النواحي والأطراف، وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس. واقتضى الحال تفرقة الجيوش التي جمعها يعقوب المنصور شرقاً وغرباً، واشتغلوا بالمدافعة والممانعة، فكثر طمع الأذفونش

في البلاد؛ وبعث رسولاً إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار، وهي: «باسمك اللهم فاطر السمٰوات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب؛ ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال أمر الرعية، وإخلادهم إلى الراحة؛ وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار؛ وأسبي الذراري وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات؛ وأجوز بجملتي إليك فأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك؛ وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره».

فلما وصل كتابه إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه، وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً

وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:37] ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع» فهو أول من تكلم به فأرسله مثلاً، وأنشد متمثلاً:

«ولا كتب إلا المشرفية والقنى ولا رسل إلا الخميس العرمرم»

ثم أمر بالاستنفار، واستدعاء الجيوش من الأمصار؛ وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه، وجمع العساكر، وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الأندلس.

وقال ابن أبي زرع: خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة يولي السير ويطوي المناهل ولا يلوي على فارس ولا راجل، والجيوش تتابع في أثره من سائر الأقطار، فلما انتهى إلى قصر المجاز أخذ في إجازة الجيوش الواردة عليه، لا يفرغ من طائفة إلا وقد لحقت بها أخرى فأجاز أولاً قبائل العرب، ثم زناتة،ثم المصامدة؛ ثم غمارة؛ ثم المتطوعة من قبائل المغرب، ثم الأغزاز والرماة، ثم الموحدون؛ ثم العبيد؛ ثم أجاز أمير المؤمنين في أثرهم في موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه؛ واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفي عشرين من رجب من السنة المذكورة، فأقام بها يوماً واحداً.

ثم نهض إلى العدو قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم؛ فسار حتى بقي بينه وبين حصن الأرك الذي كان العدو نازلاً بإزائه نحو مرحلتين، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة؛ فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم، ثم اختص أهل الأندلس بمزيد المشورة، وقال لهم: «إن جميع من استشرته وإن كانوا أولي بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم، لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم»، فأحالوه في الرأي على القائد أبي عبد الله بن صناديد، فعول المنصور رحمه الله في ذلك على رأيه.

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: إن أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه، وأخذ في تقريب القرب إلى الله تعالى بين يدي جهاده، فسرح السجون؛ وأدر الأرزاق، وعين الصدقات، ورحل فنزل الأرك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال: «أيها الناس اغفروا لي فيما عسى أن يكون صدر مني» فبكى الناس وقالوا: «منكم يطلب الرضى والغفران» وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء، فكانت التعبئة تحت الغلس.

وحكى ابن أبي زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفاً بمصلاه على الركوع والسجود؛ وإنه أغفى إغفاءة فرأى ملكاً نزل من السماء في صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح؛ وأنشده في ذلك أبياتاً بقيت على ذكر المنصور إلى أن استيقظ وقص رؤياه على وجوه الجند، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة.

فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور في قبته الحمراء المعدة للجهاد، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وقدمه على ذلك الجيش؛ وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات، وقرعت بين يديه الطبول؛ وسار في قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد في جيش الأندلس؛ ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب، ولمنديل بن عبد الرحمٰن المغراوي على قبائل مغراوة؛ ولمحيو بن أبي بكر بن حمامة المريني جد الملوك المرينيين على قبائل بني مرين، ولجابر بن يوسف العبد الوادي على قبائل بني عبد الواد، ولعباس بن عطية التوجيني على قبائل بني توجين، ولتلجين بن علي على قبائل هسكورة وسائر المصامدة، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة، وعقد للفقيه الصالح أبي خزر يخلف بن خزر الأوربي على المتطوعة.

وقال ابن خلدون: إن الذي كان على المتطوعة يومئذٍ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، والكل إلى نظر الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص؛ وبقي المنصور رحمه الله في جيش الموحدين والعبيد، وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو.

وكان المنصور قد ضفر مع ابن صناديد من الرأي أن يبقى هو متأخراً في الموحدين والعبيد والجشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو؛ ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول في هيئة السلطان فيلقى العدو؛ فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب، وإن كانت عليهم كان المنصور رداً لهم: ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفل حده ولانت شوكته.

فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه في فرسان الأندلس وحماتها، فكان الشيخ أبو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباحاً خلفه المنصور فيه بجيشه مساء، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهي يومئذٍ إلى جنب حصن الأرك ويقال الأركو بزيادة الواو في آخره، قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاوٍ وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر، ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه في البسيط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وعند ابن خلكان أن ذلك كان يوم الخميس؛ قال: واقتفى المنصور في ذلك طريقة أبيه وجده فإنهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر، فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب؛ وعقد الرايات لأمراء القبائل؛ وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها، فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة؛ وجعل المتطوعة والأغزاز والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة.

ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر؛ وبينما الناس

على ذلك إذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد، وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده؛ كان الفنش لعنه الله قد انتخبهم وصلت أقسته عليهم صلاة النصر ورشوهم بماء المعمودية؛ وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم؛ فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادي الشيخ أبي يحيى: معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم؛ وأخلصوا لله تعالى نيتكم، واذكروا الله عز وجل في قلوبكم. وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب، فحض الناس على الصبر وثبتهم، وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً ثم عاودت الحملة فكانت كالأولى؛ ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين، وخلص البعض منها إلى الشيخ أبي يحيى يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالاً شديداً واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم، وسمي بنو الشيخ أبي يحيى ببني الشهيد وعرفوا به من يومئذٍ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه؛ وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دفعت إلى الشيخ أبي يحيى؛ وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلى الربوة التي فيها الفنش وجموعه؛ وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل، فتوغل المسلمون في تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها؛ واشتد القتال واستحر القتل في الكتيبة التي دفعت أولاً وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحناً، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم.

وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالى قد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام؛ فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود؛ وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة،

فلم يرع الفنش اللعين إلا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والأبواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الأرض فقال ما هذا؟ فقيل: هذا المنصور قد أقبل في جيشه، وما قاتلك سائر اليوم إلا طلائعه ومقدماته فقذف الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزت بهم الأرض زلزالها فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، وأسعدهم يومئذٍ من وجد في فرسه بقية تنجيه، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون؛ وأحاط بعضهم بحصن الأرك يظنون أن الفنش قد تحصن به، وكان عدو الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الأخرى؛ واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر.

وقال ابن خلدون: «كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذٍ ثلاثة ابن أذفونش وابن الرند والبيبوج، قال: واعتصم فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى فودي بهم عددهم من المسلمين.

وفي القرطاس: أن عدد أسارى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً فمنّ عليهم المنصور وأطلقهم، قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين؛ وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك.

وقال ابن الأثير: «كانت الدائرة يوم الأرك أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة؛ وكان عدد من قتل من الفرنج أزيد من مائة ألف، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً؛ فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً؛ ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً وقيل ثمانون ألفاً، ومن البغال مائة ألف؛ ومن الحمير أربعمائة ألف».

قال في نفح الطيب: «جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم» قال: «وأما الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم؛ والسيف

بنصف درهم؛ والفرس بخمسة دراهم؛ والحمار بدرهم، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع» كذا في نفح الطيب.

وفي كامل ابن الأثير: «أن يعقوب المنصور رحمه الله نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح، وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس، واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفاً».

ثم تقدم المنصور بجيوشه إلى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى، ويفتح الحصون والمعاقل؛ ويقتل ويسبي ويأسر، حتى وصل إلى جبل سليمان؛ ثم ثنى عنانه راجعاً وقد امتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، ولم يعارضه من الفرنج معارض، حتى وصل إلى إشبيلية فاستقر بها.

وأما الفنش فإنه لما انهزم وصل إلى طليطلة في أسوأ حال؛ فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه وركب حماراً؛ وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة. وبلغ الخبر بذلك إلى المنصور فبعث إلى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم؛ ثم نهض إلى الفنش فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة؛ وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها.

ثم تقدم المنصور إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها وشن الغارت على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادي الحجارة ومجريط وجبل سليمان وأفليج وكثير من أحواز طليطلة.

ثم ارتحل عن طليطلة إلى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة، وسبا النساء والذرية؛ وغنم أموالها؛ وهدم أسوارها، وأضرم النيران في جوانبها؛ وتركها قاعاً صفصفاً.

وثنى عنانه إلى إشبيلية، فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين

وخمسمائة؛ فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه ومعتقده، وكان أحد فلاسفة الإسلام وربما ألفى بعضها بخط يده فحبس، ثم أطلق وأشخص إلى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله.

ثم خرج المنصور من إشبيلة غازياً بلاد ابن أذفونش، فسار حتى احتل بساحة طليطلة، وبغله أن صاحب برشلونة قد أمد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جميعاً بحصن مجريط فنهض إليهم، ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال، ثم انكفأ المنصور راجعاً إلى إشبيلية.

ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازماً على الامتناع مريداً لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأتاه خبر علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية وأنه دخل إفريقية وأراد الاستيلاء عليها؛ ففت ذلك في عزمه وصالحهم على المدة التي ذكرنا.

وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص؛ وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص؛ ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش في شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وفي نفح الطيب: أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها خرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومنّ عليهن به، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جل؛ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة. والله تعالى أعلم.

لطيفة: قال الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي رحمه الله في كتاب الفتوحات المكية ما نصه: «ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين

استفحل أمره على الإسلام، فلقيت رجلاً من رجال الله ولا أزكى على الله أحداً؛ وكان من أخص أودائي، فسألني ما تقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا؟ فقلت له: ما عندك في ذلك؟ فقال: «إن الله تعالى قد ذكره في كتابه، ووعد نبيه ﷺ بهذا الفتح في هذه السنة، وبشر نبيه ﷺ بذلك في كتابه الذي أنزله عليه؛ وهو قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1] فموضع البشرى فتحاً مبيناً من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية؛ فانظر أعدادها بحساب الجمل؛ فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثم جزت إلى الأندلس وقد نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والأركو وكركرا وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات. هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته، فأخذت للفاء ثمانين، وللتاء أربعمائة، وللحاء المهملة ثمانية؛ وللألف واحد؛ وللميم أربعين؛ وللباء اثنين؛ ولللياء عشرة؛ وللنون خمسين، وأما الألف فقد أخذ عددها؛ وكان المجموع إحدى وتسعين وخمسمائة؛ وهي سنو الهجرة إلى هذه السنة فهذا من الفتح الإلٰهي لهذا الشخص». انتهى.

ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والأندلس

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى إلى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مراكش، والاعتناء بتشييد قصورها. فمن آثاره الباقية بها إلى الآن بابها المعروف بباب أكناور، ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه، وأمرهم ببناء الجامع الأعظم بها المنسوب إليه إلى اليوم وتشييد مناره الماثل به، ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل في الارتفاع وعظم الهيكل. قال ابن سعيد: «طول صومعة الكتبيين بمراكش مائة ذراع وعشر أذرع».

ولما اجتاز المنصور في سفره هذا بأرض سلا أمر أيضاً ببناء مدينة رباط الفتح؛ فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها، وركبت أبوابها؛ وأمر ببناء المسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسة الجوفية منه. قال صاحب الروض المعطار: «كان يعمل في بنائه ونقل حجارته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج في قيودها؛ وأمر ببناء جامع حسان ومناره الأعظم المضروب به المثل في الضخامة وحسن الصنعة؛ قالوا ولم يتم بناؤه.

ولما فرغ المنصور من وقعة الأرك، واحتل بمدينة إشبيلية؛ أخذ في إتمام بناء جامعها الأعظم وتشييد مناره المشاكل للمنارين المتقدمين؛ فهو ثالثة الأثافي بالنسبة لهما، بل قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منار أعظم منه؛ وعمل لهذا المنار تفافيح من أملح ما يكون». قال في القرطاس: «بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله. وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعاً من الحديد؛ وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً».

ولما كمل جامع إشبيلية وصلى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية، وقد تقدم لنا في أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس؛ وأن حافده المنصور هذا شرع في بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده.

ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم؛ وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك، لأنه سعى إليه بأنهم احتجنوا الأموال، وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم؛ فلما دخله المنصور وتطوف به أعجبه؛ فسأل عن عدد أبوابه فقيل إنها سبعة أبواب والثامن هو الذي دخل منه أمير المؤمنين، فقال المنصور عند ذلك: «لا بأس بالغالي إذا قيل حسن».

واتخذ المنصور[1] رحمه الله في جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها، وتختفي إذا انفصلوا عنها.

حكى الشريف الغرناطي شارح الحازمين عن الكاتب البارع أبي الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال: «كانت لأبي بكر يحيى بن مجير[2] الشاعر المشهور وفادة على المنصور في كل سنة، فصادف في إحدى وفاداته فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله، وكان جميع من بباب المنصور يومئذٍ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره؛ ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التي أولها:

أعلمتني ألقي عصا التسيار ... في بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالإمام يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهلالات للأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

قال أبو العباس المقري في نفح الطيب: وقد بطلت حركات هذه

(1) نسب صاحب الحلل الموشية بناء المسجد والمقصورة لعبد المؤمن.

(2) توفي بمراكش سنة 588.

المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف؛ والله وارث الأرض ومن عليها.

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله:

له حلبة الخيل العتاق كأنها نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى فلم تبغ خلخالاً ولا التسمت وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه وإن جردوه في ملاءته التقا
وأبلق أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا فإذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفاً أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب قضى الأديم مدثر عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطخط الراهي بمهرق كاتب فجر عليه ذيله وهو ما جفا
تهب على الأعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمتري أظبياً ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سربه فربته مهراً وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه إذا ما أردت الجري أعطاكه ضعفا

ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفنش الصلح فأجابه إليه:

أهل بان يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلداً وموشحاً ومختماً ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرت منه الرياح تأرجا

ودخل عليه الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وكانم بكسر النون جنس من السودان؛ وهم بنو عم تكروره؛ وليس

اسمهما للانتساب لأب أو لأم، وإنما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس بها، وكذلك تكرور اسم للأرض التي هم بها فسموا بها؛ والله أعلم.

بقية أخبار المنصور وسيرته

قال ابن أبي زرع: كان المنصور رحمه الله ذا رأي وحزم ودين وسياسة، قال: وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين: «الحمد لله وحده» فجرى عملهم على ذلك. وقد تقدم لنا أن ذلك كان في دولة أبيه فالله أعلم.

وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذي ضخم الدولة وشرفها. وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ضبط الثغور، وحصن البلاد، وبنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس؛ وبنى الموستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق في جميع أعماله، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم؛ كل على قدر مرتبته؛ وبنى الصوامع والقناطر، وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من السوس الأقصى إلى سويقة بن مصكوك، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفاً للإسلام وأهله.

وقال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور رحمه الله صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو؛ جميل الوجه؛ أفوه؛ أعين. شديد الكحل. ضخم الأعضاء، جوهري الصوت، جزيل الألفاظ. من أصدق الناس لهجة؛ وأحسنهم حديثاً؛ وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمور؛ ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور؛ فلما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين

على تقديمه فقام بالأمر أحسن قيام؛ ورفع راية الجهاد؛ ونصب ميزان العدل؛ وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع؛ ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين؛ كما أقامها في سائر الناس أجمعين؛ فاستقامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوحات؛ وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في ملكه؛ فأجاب قوم وامتنع آخرون، وكان ملكاً جواداً عادلاً، متمسكاً بالشرع المطهر. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة؛ ويصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف؛ ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق.

قال ابن خلكان: وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا؛ وهي أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن عاشر أبي حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة؛ فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المنصور؛ فسير الشيخ عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه، فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان؛ فاجتمع القاضي المذكور بأمير المؤمنين يعقوب المنصور، وقال له: «إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله» فسكت عنه المنصور، ومضت أيام؛ ثم إن الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر المنصور بمراكش وقال له: «أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤوني» فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له: «يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية» فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له: «يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني منهم» فاجتمع القاضي بالمنصور، وقال له: «يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله؛ فأما أن تسير إليه أهله، وإما أن تعزلني عن القضاء» فسكت

المنصور وقيل إنه قال له: «يا عبد الله ما هذا إلا جد كبير» ثم استدعى خادماً وأمره سرّاً بأن تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك اليوم، ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه؛ وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره؛ وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضاً فإنه بالغ في إقامة منار الشرع والعدل.

وكان المنصور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا، أمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية؛ ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس.

قال ابن خلكان: ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق، مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمرو؛ ومحيي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم؛ وكان يعاقب على ترك الصلوات، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً.

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته، حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس، وكان محسناً، محباً للعلماء مقرباً للأدباء؛ مصغياً إلى المدح؛ مثيباً عليه، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان.

وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع وإجادته وقد تقدم لنا ما وقع به على كتاب الفنش.

وحكى ابن الخطيب في رقم الحلل: أن المنصور طلب يوماً من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد، وضبط أمر؛ فعرفه برجلين؛ قال في أحدهما: وهو بحر في علمه؛ وقال في الآخر: وهو بر في دينه، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه؛ وأكذبا الدعوى؛ فوقع المنصور على رقعة القاضي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر، قال ابن الخطيب: وهذا من التوقيع العريق في الإجادة والصنعة.

وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعارف والفنون. حكى أبو الفضل التيفاشي قال: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد؛ والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي، وكان الأول قرطبيّاً، والثاني إشبيليّاً، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: «ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية».

وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية، وزير للمنصور ولأبيه من قبله.

قال ابن خلكان: كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك؛ ونفذت أوامرهم وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس، ومما قاله بمراكش يتشوق إلى ولد له صغير تركه بإشبيلية:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلف قلبي لديه
نأت عنه داري فيا وحشتي ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته ... فيبكي علي وأبكي عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليّ ومني إليه

قال العلامة الأديب أبو العباس المقري في نفح الطيب: أخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل، الفاسي المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان أبي العباس المنصور بالله السعدي، أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات وسمعها يعقوب المنصور أرسل المهندسين إلى إشبيلية - يعني من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش. ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه؛ وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار؛ ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت؛ فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. «هكذا هكذا وإلا فلا لا».

ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل وادي آش، كان حاذقاً بصناعة الطب والجراحات. ومن أطبائه أيضاً الحفيد بن رشد المتقدم الذكر. ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي النشأة، اليابوري الأصل. والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية، ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد، والفقيه القاضي أبو عبد الله بن الصقر، وغيرهم رحم الله الجميع.

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله. فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه.

وقال ابن خلكان: لما وصل المنصور إلى مراكش - يعني بعد قدومه من الأندلس - أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية، فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له: يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس؛ فمنا من له خمس سنين وغير ذلك. فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأجابهم إلى سؤالهم؛ وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له.

وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك، وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي، وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش.

قال ابن خلكان: وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق؛ وهو مستخف لا يعرف ومات خاملاً، ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى، وقيل في ربيع الآخرة في سابع عشرة، وقيل في غرة صفر؛ ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته. وقيل توفي بمدينة سلا.

قال ابن خلكان: ثم حكى لي جمع كثير بدمشق أن بالقرب من

المجدل ـ البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي ـ قرية يقال لها حمارة، وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب، قال: وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به.

قال المقري في نفخ الطيب: هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب، وسبب هذه المقالة تولع العامة به، فكذبوا في موته؛ وقالوا: إنه ترك الملك وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل، ثم نقل عن الشريف الغرناطي مثل ذلك فانظره.

قال مؤلفه عفا الله عنه: وعندي[1] أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد، وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعاً به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على أنه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند، هذا بعيد في العادة، بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته. نعم، ما تزعمه عامة المغرب في حمة أبي يعقوب التي بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هذا، وأنه رصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد، وأن حرارة مائها بسبب ذلك الإيقاد، وأن الشفاء الذي حصل للمستحمين إنما هو ببركة يعقوب المنصور،

(1) قول المؤلف وعندي أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد الخ فيه نظر لا يخفى على من تتبع أحوال معتقدات العامة في عظمائها بعد الموت كالشيعة في أئمتها وغيرهم من الغلاة في التعظيم لذوي الظهور في السياسة والصلاح، فقد ذكر المؤلف نفسه أن أصحاب الروكي لا يصدقون بموته ولا زال البعض من أصحاب الكتاني يعتقد حياته وكم لهذا في التاريخ من نظير زد على ذلك أن كلام مؤرخي المغاربة أولى بالاعتبار في هذا المقام والحق ما قاله الغرناطي في شرح المقصورة بعد كلام طويل وكذب الكافة من العامة بوفاته ولهم في ذلك حكايات يقولونها إلى الآن كلها تخرص وأباطيل اهـ.

وجعلوا له زوجة أو بنتاً اسمها شافية اشتقاقاً من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل، وإنما حرارة العين لخاصية أودعها الله في أصلها ومنبعها، وكذا الشفاء الحاصل بها إنما هو بخاصية في ذلك الماء؛ ولعلها ما فيه من الكبريتية؛ فإنا نرى أصحاب الجرب يلتطخون بالكبريت المعالج فيشفون؛ وكم من عين على وجه الأرض في المشرق والمغرب؛ وبلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد.

وقال الجوهري في الصحاح الحمة العين الحارة يستشفي بها الأعلاء والمرضى وفي الحديث العالم كالحمة اهـ ومثله في القاموس؛ بل ذكر فيه مدينة تفليس ـ وهي قصبة كرجستان عليها سوران ـ قال وحمامتها تنبع ماء حاراً بغير نار.

وقد ذكر ابن أبي زرع في القرطاس حمة أبي يعقوب هذه، وذكر معها حمتين أخريين فقال: «وبالقرب أيضاً من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان، ماؤها في أشد ما يكون من السخونة؛ وبالقرب أيضاً منها حمة وشنانة وحمة أبي يعقوب وهي من الحمات المشهورة بالمغرب» اهـ. كلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعاً، ولعله أبو يعقوب الأشقر الآتي ذكره في أحداث المائة السابعة.

ولنرجع إلى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول: قال ابن الخطيب في رقم الحلل: توفي يعقوب المنصور رحمه الله في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ودفن بمجلس سكناه من مراكش؛ وكذب العامة بموته ولوعاً وتمسكاً به، فادعوا أنه ساح في الأرض اهـ.

وقال ابن أبي زرع: لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها، الأولى: إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع إني أعلم أنهم أهل فساد. والثانية: بناء

رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر. والثالثة: إطلاقي أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

قلت ما ذكره رحمه الله في رباط الفتح من أنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفاق النقصان وطوارق الحدثان.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول: في سنة أربعين وخمسمائة هدم علي بن عيسى بن ميمون ـ وكان من رؤساء البحر في دولة اللمتونيين ـ صنم قادس، وقادس هذه هي الجزيرة المسماة في لسان العامة اليوم بقالص؛ وكان بها صنم عظيم على صورة رجل وبيده مفتاح يقال إن حكماء اليونان اتخذوه طلسماً هناك، كان من خاصيته أن يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط. فكانت السفن لا تجري هناك على ما قيل، فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يجد شيئاً.

وفي السنة المذكورة توفي أبو علي منصور بن إبراهيم المسطاسي دفين آزمور، وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبي شعيب السارية.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة توفي الإمام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي. قال ابن خلكان: توفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، وقيل: في شهر رمضان من السنة المذكورة، ودفن بباب آيلان داخل المدينة، وذلك في دولة عبد المؤمن بن علي.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو من أهل مدينة فاس؛ وبها توفي أخريات شعبان من السنة المذكورة، وكان فقيهاً زاهداً صوفياً، قال أبو الحسن

المذكور: «اعتكفت على قراءة الإحياء سنة، فجردت المسائل التي تنتقد عليه وعزمت على إحراق الكتاب، فنمت فرأيت قائلاً يقول: جردوه واضربوه حد الفرية؛ فضربت ثمانين سوطاً، فلما استيقظت جعلت أقلب ظهري ووجدت الألم الشديد من ذلك فتبت إلى الله، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة». وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان في جنازة أبي الحكيم بن برجان.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة توفي الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور، وبها توفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وكان رضي الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى، وكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام، فلذلك لقب بالسارية، ونقلت عنه في الورع والخوف حكايات انظر التشوف.

قال مؤلفه عفا الله عنه كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف، ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الأدباء من النسب وغيره؛ وأنشدتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله؛ فأحببت أن أذكرها هنا وهي هذه:

لله يا ربع ما هيجت من شجن	على الفؤاد ومن ضنى على البدن
وقفت فيك ركاباً طالما وقفت	على القصور على الأطلال والدمن
أيام فيك حسان ما أشبهها	بالشمس حسناً ولا في اللين بالغصن
وفيك أسد من الملوك عادتها	بذل النضار وصون البيض والحصن
يحمون منك عراصاً كنت أعهدها	مأوى السرور فعادت موقف الحزن
عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة	كأن بأسهم المحذور لم يكن
قوم عرفت نداهم قبل معرفتي	نفسي وفاجأني في المهد بالمتن
ومذ ترعرعت لم أعلق بغيرهم	حتى كأني رضعت الحب في اللبن
قضيت حق الشباب في منازلهم	أيام عيش لنا أحلى من الوسن

من ظن بالدهر خيراً فهو منخدع ... فـوده هـدنـة تبـنـى عـلـى دخـن
لا أنتحي منهلاً إلا شرفت به ... ولا أحل مكاناً ليس بالخشن
ولا أصاحب من هذا الورى بشراً ... إلا حصلت على رزق من الإحن
حتى توهمت أنني جنيت لهم ... حرب البسوس وأنني أبو الفتن
وما لذي الفضل من ذنب يلام به ... سوى فضيلته في دهره الزمن
فعد يا قلب عن شكوى أضيق بها ... ذرعاً فشكواك لي ضرب من الوهن
ولست أحسب هذا الدهر مرعوياً ... ولو تعلقت منه بابن ذي يزن
حلا لقد علقت يدي بمن علقت ... أيدي العفاة به في الشام واليمن
بأعظم الناس منزلاً ومنزلة ... وأسمح الناس كفاً بالندى الهتن
وأشمخ الناس قدراً في الورى وعلا ... وأحكم الناس للفروض والسنن
ذاك الولي الذي كل الأنام غدا ... يتلو مناقبه في السر والعلن
أبو شعيب الذي من بحره انشعبت ... جداول اليمن في الأحياء والمدن
بدر غدا في سماء المجد مكتملاً ... به علا ذكر آزمور في الوطن
أرض إذا الضرع المحروم يممها ... ألفى بها بدل الأهلين والسكن
أود من أجل ثاويها حجارتها ... واجعل الترب لي مسكاً بلا ثمن
كيف لا تطبي قلبي منازل من ... به أكون من الأحداث في جنن
مجلي الغياهب مبذول المواهب مقـ ... ـفو المذهب بالجنيد والقرني
بحر الحقيقة والغوث الذي لهجت ... به القبائل في المقام والظعن
ما زال يرقى الذرى من كل صالحة ... حتى اكتسى شهرة النيران في القنن
يا خير من أمه العافي ولاذ به ... أهل الجرائم والأوزار والمحن
إني خدمتك في شعر عنيت به ... وليس لولا حلاك الزهر بالحسن
اشكو إليك سقاما أنت مبرئه ... ولست أرجو سواك منه ينعشني
وشد أزري فإني كنت معتقداً ... إذا بلغتك قدت الدهر بالرسن
وانظر بفضلك من وافك معتفياً ... فإن نظرت فكل الخير يشملني
وأعظم السؤل منك النفس تصلحها ... وطهر القلب ما لأمراض والدرن
وامنحه نوراً وتوفيقاً ومعرفة ... أرى بها علمي والبر في قرن

فجد بما رمت من جداوك يا أملي فبحر جودك عذب ليس بالأجن
سقى ضريحك غيث ما يزال به بستان أنسك وهو مورق الفنن
بجاه أفضل خلق الله كلهم محمد ذي المزايا الغر والمنن
عليه أزكى صلاة الله ما تليت صحف وما نسج القريض ذو لسن
والآل والصحب والأزواج قاطبة ومن قفا نهجهم في كل ما زمن

واعلم أن التعلق بأولياء الله رضي الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار أن الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة، والفاعل للأشياء كلها؛ لا معبود غيره؛ ولا مرجو سواه، وإنما التمسك بأهل الله لأجل التبرك بهم والاستشفاع بهم إلى الله تعالى، لأنهم أبواب الله والدالون عليه، نفعنا الله بهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول ـ صاحب كتاب مطالع الأنوار، الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض ـ كان من الأفاضل، وصحب جماعة من علماء الأندلس؛ وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة؛ وكان قد صلى الجمعة في الجامع ذلك اليوم، فلما حضرته الوفاة تلى سورة الإخلاص وجعل يكررها بسرعة، ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً رحمه الله.

وفي سنة سبعين بعدها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصاري المعروف بالمتيطي، ومتيطية قرية بأحواز الجزيرة الخضراء، وهو الموثق المشهور؛ لازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطي وبين يديه تعلم عقد الشروط، وله كتاب كبير في الوثائق سماه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام؛ ثم انتقل إلى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه، ومهر في كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن في وقته أقدر منه عليها؛ وكان له في السجلات اليد الطولى، وطبع

عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه في سواها بل كان طبعه في ذلك أكثر من فقهه، ثم ولي القضاء بشريش، وأصابه خضر لازمه نحو السنتين؛ ثم توفي مستهل شعبان من السنة المذكورة.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة توفي وحيد عصره، وأعجوبة دهره؛ الولي العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون، قال قوم: إنه من هزميرة إيرجان؛ وقيل من بني صبيح من هسكورة؛ مات وقد نيف على المائة بنحو الثلاثين سنة، ودفن بجبل إيرجان في أوائل شوال من السنة المذكورة. كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول: «رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى» قال: «ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي» وكان لباس الشيخ أبي يعزى برنساً أسود مرقوعاً إلى أسفل من ركبتيه، وجبة من تليس مطرف، وشاشية من عزف؛ وكان يتعيش من نبات الأرض، ولا يشارك الناس في معايشهم؛ وكان طويلاً رقيقاً أسود اللون، وكان إذا جنه الليل دخل غيضة كثيرة السباع يتعبد فيها، فإذا قرب الفجر أعلم أصحابه به؛ وأحواله رضي الله عنه وكراماته كثيرة.

وفي سنة ثلاث وسبعين بعدها توفي الشيخ العارف أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي دفين قصر كتامة، نشأ بشلب من بلاد الأندلس وقرأ بقرطبة؛ واستقر آخراً بقصر كتامة وبه توفي في السنة المذكورة، وقيل إن وفاته كانت سنة ثمان وستين قبل هذا التاريخ والله أعلم. وكان رضي الله عنه متمكناً في علوم القوم؛ وكان الأولياء يحضرون مجلسه، وهو من تلامذة أبي العباس بن العريف المتقدم الذكر.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة توفي الشيخ أبو عبد الله التاودي العلم من أهل مدينة فاس، ومن أصحاب الشيخ أبي يعزى؛ وكان يعلم الصبيان فيأخذ الأجر من أولاد الأغنياء فيرده على أولاد الفقراء، ومات بفاس في السنة المذكورة. وهذه النسبة إلى بني تاودي وهي قبيلة بقرب فاس.

وفي سنة إحدى وثمانين بعدها توفي الإمام المشهور أبو زيد عبد الرحمٰن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد السهيلي الخثعمي صاحب كتاب الروض الأنف وغيره من التآليف الحسان، وصاحب الأبيات المشهورة في الدعاء وهي:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع — أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها — يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن — أمنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة — فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة — فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه — إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن تقنط عاصياً — الفضل أجزل والمواهب أوسع

كان ببلدته سهيل وهي قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف، حتى نمى خبره إلى السلطان بمراكش فطلبه إليها وأحسن إليه؛ وأقبل بوجهه غاية الإقبال عليه، فأقام بها نحو ثلاث سنين؛ ثم توفي بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة، ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش؛ وكان رحمه الله ضريراً نفعنا الله تعالى به.

وفي سنة تسعين وخمسمائة توفي ولي الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسي المعروف بالغماد من صلحاء سلا، كان رحمه الله عبداً صالحاً؛ يدور على المكاتب؛ ويستوهب الدعاء من الصبيان، ويبكي على نفسه؛ وله كرامات، وتوفي ببلده المذكور؛ وقبره معروف ملاصق للمسجد الأعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة.

وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الشيخ أبو يعقوب يوسف بن علي المبتلى. المعدود في سبعة رجال من صلحاء مراكش؛ كان رضي الله

عنه كبير الشأن، فاضلاً صابراً راضياً على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذم؛ سقط بعض جسده ذات يوم، فصنع طعاماً كثيراً للفقراء شكراً لله تعالى على ذلك؛ وكان يسكن بحارة الجذمي العتيقة قبلي مراكش، وبها مات في شهر رجب من السنة المذكورة، ودفن خارج باب أغمات عند رابطة الغار، واحتفل الناس لجنازته رضي الله عنه.

وفي سنة أربع وتسعين بعدها توفي الشيخ العارف بالله تعالى، أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري؛ الولي الكبير المشهور، أصله من حصن قطنيانة من عمل إشبيلية، ثم انتقل إلى العدوة فأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم؛ وعن الشيخ أبي يعزى وبه انتفع وعليه تخرج، وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه من العارفين الراسخين، قد خاض من الأحوال بحاراً؛ ومن المعارف أسراراً؛ وجال في حداثة سنه في بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس، ولازم بفاس الشيخ ابن حرزهم كما قلنا؛ ثم سمع بخبر الشيخ أبي يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته.

قال الشيخ أبو مدين: «لما قدمت فاساً لقيت بها الأشياخ، فسمعت رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزهم، وكتاب السنن للترمذي على أبي الحسن بن غالب؛ وأخذت طريقة التصوف على أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي» قال: «وكنت أزور الشيخ أبي يعزى مراراً فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى قد ثبتت عندنا ولاية أبي يعزى؛ ولكنا نشاهده يلمس بطون النساء وصدورهن ويتفل عليهن فيبرأن ونحن نرى أن لمسهن حرام؛ فإن تكلمنا في هذا هلكنا، وإن سكتنا حرنا»، فقلت لهم: «أرأيتم لو أن ابنة أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليه إلا الزوج، ولم يوجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني؛ ألستم تجيزون ذلك مع أن دواءه مظنون؛ ودواء أبي يعزى أنتم على يقين منه؟» فبلغ كلامي أبي يعزى فاستحسنه.

قال محمد بن إبراهيم الأنصاري: «خرّج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ؛ وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس في الحلقة فقال له أبو مدين: «لم جئت؟» قال: «لأقتبس من نورك» فقال له: «ما الذي في كمك؟ فقال له: «مصحف» فقال له: «افتحه واقرأ أول سطر يخرج لك» ففعل، فخرج له قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:92] فقال له أبو مدين: «أما يكفيك هذا؟» فاعترف الرجل وتاب. وكراماته رضي الله عنه كثيرة.

وكان استوطن في آخر عمره بجاية؛ وكثر عليه الناس، وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور؛ وقال له: «إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالإمام المهدي؛ وأتباعه كثيرون بكل بلد» فوقع منه ذلك، فكتب لصاحب بجاية يبعثه إليه وأوصاه بالاعتناء به، وأن يحمله إليه خير محمل ففعل.

ولما كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه بالطريق مرض مرض موته، فلما وصل وادي يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هنالك فكان آخر كلامه: الله الحق؛ فتوفي ودفن برابطة العباد قرب تلمسان. وسمع أهل تلمسان بجنازته فحضروها، وكانت من المشاهد العظيمة.

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة: توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية، أقام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة إلا يوماً واحداً لعذر عاقه عن ذلك؛ دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفاً من المال، فما زال ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له إلا دار سكناه فباعها من بعض أهل فاس وأعمره المشتري لها، فلما خرجت منها جنازته حازها المشتري المذكور؛ وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

واعلم أنا قد قدمنا أن الشيخ أبا مدين كان تلميذاً للشيخ أبي يعزى، وكان الشيخ أبو يعزى تلميذاً للشيخ أبي شعيب السارية؛ وكان الشيخ أبو

شعيب تلميذاً للشيخ أبي ينور الدكالي نفعنا الله بجميعهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

ولنرجع إلى أخبار الدولة الموحدية فنقول:

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لأبي عبد الله محمد الناصر لدين الله في حياة والده يعقوب المنصور، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه، فأقام بمراكش بقية ربيع الأول وربيع الثاني؛ ثم نهض في فاتح جمادى الأولى إلى فاس؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة.

ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغماري الثائر بها ففتحها، ثم رجع إلى فاس فأتم بناء سورها الذي كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها، وأقام بها إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة؛ فعاد إلى مراكش وأقام بها إلى أن كان ما نذكره.

غزو الناصر بلاد إفريقية وولاية الشيخ أبي محمد بن أبي حفص عليها والسبب في ذلك

لما هلك المنصور رحمه الله قوي أمر يحيى بن إسحاق ـ المعروف بابن غانية بإفريقية ـ واستولى على أعمال قراقوش الغزي صاحب طرابلس وعلى المهدية، وتغلب على بلاد الجريد؛ ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وافتتحها عنوة لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة، وقبض على السيد أبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين؛

وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق. وبسط عليهم العذاب حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد، وانتظمت له أعمال إفريقية؛ وفرق العمال؛ وخطب للخليفة العباسي.

واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك، وشاور الموحدين في أمر إفريقية؛ فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية، وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها، فعمل على رأيه؛ ونهض إليها سنة ستمائة وبعث الأسطول في البحر لنظر يحيى بن أبي زكريا الهزرجي.

واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه إلى المهدية مع علي بن الغاني من قرابته وولاه عليها.

ولما قرب الناصر من إفريقية خرج ابن غانية من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة، واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع؛ وسار إلى حامة مطماطة؛ ثم إلى جبل بني دمر فتحصن به.

ووصل الناصر إلى تونس، ثم سار في اتباع ابن غانية إلى قفصة ثم إلى قابس، ثم عاد إلى المهدية فعسكر عليها، واتخذ الآلة لحصارها؛ وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة، فلقيه بجبل تاجورة من نواحي قابس وأوقع به؛ وقتل أخاه جبارة بن إسحاق؛ واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله.

وأما الناصر فإنه استمر محاصراً للمهدية وبها يومئذٍ علي بن الغاني، وكان يدعى بالحاج، وكان شهماً محارباً فامتنع على الناصر وأبدى من مكايد الحرب وخداعه ما يقصر عنه الوصف، وأشجى الموحدين وبالغ في نكايتهم؛ فكانوا يسمونه الحاج الكافر. ثم نزل على الأمان وأحسن إليه الناصر إحساناً تاماً، وسماه بالحاج الكافي بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاة

لصاحبه وحسن عهده معه. واستشهد الحاج الكافي هذا في وقعة العقاب الآتية:

وكان فتح المهدية في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وستمائة، وولى الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغي؛ وارتحل عنها في عشرين من جمادى الثانية؛ فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر الذي بعدها.

ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة أشاع الناصر الحركة إلى المغرب، واستخلف على إفريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاتي جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع.

قال ابن خلدون: امتنع الشيخ أبو محمد إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكبر مجيئه وأذعن، ويقال إن الناصر قال له: «يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في استنقاذ هذا القطر، ولا آمن عليه من عدو متوثب، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت. فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا، أو قم أنت وأرجع أنا». فقنعه الحياء حينئذٍ وأذعن للإقامة، واشترط شروطه المعروفة؛ وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال ثم يعود إلى وطنه، وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل؛ فقبل الناصر شروطه.

ولما عزم الناصر على النهوض إلى المغرب خرج إليه أهل تونس رافعي أصواتهم بين يديه إشفاقاً من عود ابن غانية إليهم، فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه؛ وقال: إنا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على شدة حاجتنا إليه وهو فلان، فتباشر الناس بولايته. وشيع الناصر إلى باجة ورجع والياً على جميع بلاد إفريقية، واستقل بأمرها ونهيها.

فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية، وقفل الناصر

إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمائة. ولما استقر بالحضرة وفدت عليه الوفود. وهنأته الشعراء بالفتح. فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله:

ولما توالى الفتح من كل وجهة ... ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره ... بما أودع السر الإلهي عنده
فلا نعمة إلا تؤدى حقوقها ... علامته بالحمد لله وحده

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع، وأشار بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين؛ فإنها كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور: الحمد لله وحده، وقد تقدم ذلك والله أعلم.

فتح جزيرة ميورقة

كانت جزيرة ميورقة لبني غانية المسوفيين من عهد علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، وكان يعقوب المنصور قد بعث إليها أسطوله مراراً فامتنعت عليه، ولما ولي ابنه الناصر وغزا إفريقية وجه إليها من ثغر الجزائر أسطولاً مع عمه السيد أبي العلاء؛ والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة، وقتلوا صاحبها عبد الله بن إسحاق المسوفي.

وانصرف السيد إلى مراكش بعد أن ولي عليها عبد الله بن طاع الله الكومي، ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم. وولي القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبا محمد عبد الله بن سليمان الأنصاري المعروف بابن حوط الله، ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال: «كان مشهوراً بالعقل والفضل، معظماً عند الملوك معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية مقدماً في ذلك، ذا بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة فتظاهر بالعدل،

وعرف بما أبطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين. مجانباً لأهل البدع والأهواء، بارع الخط؛ حسن التقييد إلى غير ذلك.

ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد أبا زيد؛ وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينمللي؛ ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيماً.

ثورة ابن الفرس وما كان من أمره

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس، ويعرف بالمهر، وحضر مجلس يعقوب المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده، فخرج من المجلس واختفى مدة؛ ثم القحطاني المراد بقوله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً الحديث. وكان مما نسب إليه من الشعر قوله:

قولا لأبناء المؤمن بن علي	تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها	ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم	بالأمر والنهي بحر العلم والعمل
وبادروا أمره فالله ناصره	والله خادع أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه، وقتل وسيق رأسه إلى مراكش فنصب بها وسكنت الفتنة.

وقد ثار أيضاً في سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد ـ وهذا العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر ـ فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من أحواز فاس؛ فظفر به

وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس، وأحرق جسده في وسط الباب المذكور، وركبت مصارعه فسمي الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة.

ثم في سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى أنه الفاطمي؛ وتبعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية، فبعث إليه الناصر جيشاً فظفر به وقتل.

وفي سنة إحدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر - واسمه يعيش - سور بادس ولمديه ومليلية حياطة وتحصيناً من فجأة العدو.

وفي سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة وإصلاحها، فشرع في ذلك في فاتح رجب من السنة المذكورة.

وفيها أيضاً أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بإزاء جامع الأندلس بفاس، فبنيت وجلب إليها الماء من العين التي خارج باب الحديد؛ وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذي بحصن الجامع المذكور وأنفق في ذلك كله من بيت المال.

وفيها أيضاً أمر ببناء مصلى القرويين، وأمر أن لا يصلى بمصلى الأندلس؛ فأقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالأندلس والقرويين معاً، كما كانوا أولاً بعد أن شهد أنها قديمة.

وفي شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان ما نذكره.

غزوة العقاب التي محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الأخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفنش لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس، وأنه يغير على قراها وينهب الأموال ويسبي النساء والذرية؛ فأهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيره في الغزو؛ فأبى عليه فخالفه وأخذ في الحركة للجهاد.

وكان الناصر معجباً برأيه، مستبداً بأموره؛ ففرق الأموال على القواد والأجناد؛ وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار، وتسارع الناس إليه خفافاً وثقالاً من البوادي والأمصار.

فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش في تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة؛ فانتهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة، فتلقاه هنالك قواد الأندلس وفقهاؤها ورؤساؤها؛ وأقام بطريف ثلاثاً، ثم نهض إلى إشبيلية في أمم لا تحصى - وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر.

حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع مع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل، وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده؛ وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق، فجعل العرب فرقة؛ وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة؛ وجعل المتطوعة فرقة، وجعل جند الأندلس فرقة؛ والموحدين فرقة؛ وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية، واهتزت جميع بلاد

الفرنج لجوازه، وتمكن رعبه في قلوبهم، فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم. وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو، ووفد عليه منهم ملك ينبلونة مستسلماً خاضعاً طالباً للصلح؛ فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبي ﷺ الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به؛ وقد كان هذا الكتاب وقع إليه وراثة من بعض سلفه، فاحتفل الناصر لقدومه؛ وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة إلى باب إشبيلية أربعين ميلاً، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين؛ وصرفه إلى بلاده مكرماً مسعفاً بجميع مطالبه.

وعند ابن خلدون أن الذي وفد على الناصر في هذه الغزوة هو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الأرك؛ قال: وهو الذي مكر بالناصر يوم العقاب، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالاً؛ ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم.

ثم خرج الناصر من إشبيلية غازياً بلاد قشتالة في أوائل صفر سنة ثمان وستمائة، فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قمة جبل، وقد تعلق بأكناف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد في مضائق وأوعار؛ فنزل عليه لناصر وأدار به الجيوش، ونصب عليه أربعين منجنيقاً فهتك أرباضه؛ ولم يقدر منه على شيء.

قالوا: وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر، فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه، وانفرد هو به فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن، وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه إلى غيره؛ فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتى يفتحه، فيقال إنه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس؛ وقلت علوفاتهم؛ وكلت عزائمهم، وفسدت نياتهم؛ وانقطعت الأمداد عن

المحلة فغلت بها الأسعار، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر، ويقال إنه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش الخطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله.

واتصل بالفنش لعنه الله ما آل إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأي، فاغتنم الفرصة وبعث الحاشرين في مدائنه ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له.

ثم خالف الناصر إلى قلعة رباح فنازلها، وبها يومئذٍ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الأندلس وزعمائها، كان قد ترتب في ذلك الحصن في جماعة من الخيل لحمايته وضبطه، فحاصره الفنش وبالغ في التضييق عليه؛ فكان ابن قادس يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه، وهو على حصن سلبطرة؛ فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه، فلما طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الأقوات والسلاح ويئس من إمداد الناصر إياه وخشي على من في الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم، ففعل؛ واستولى الفنش على قلعة رباح.

وسار ابن قادس إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه؛ وسار معه صهر له بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى، وقال: إن قتلت قتلت معك! ولما وصل إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه، ثم دخل على الناصر فقال له: إن ابن قادس قد دفع الحصن إلى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك.

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس، واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش؛ فلما قدم ابن قادس في هذه المرة وقال له ابن

جامع ما قال أمر بقتله هو وصهره قطعاً بالرماح رحمهما الله.

فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر، وأحس ابن جامع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه، فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:47]. وسننظر بعد هذا في أمر كل فاجر.

ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رياح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه؛ وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد، ثم شدد في قتال سلبطرة وبذل الأموال الجليلة حتى فتحها صلحاً وذلك في أواخر ذي الحجة من سنة ثمان وستمائة، ثم زحف الفنش إلى الناصر ونهض الناصر إليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان، فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بإزائه؛ ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع؛ وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر، فتقدمت إليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفاً، فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يحرك إليهم منهم أحد.

ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة. فلما انتشب القتال بين الفريقين فرقت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولاً ـ، وتهديدهم وطرده لهم ثانياً، فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت عليه من العبيد

والحشم، فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شيء؛ ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول: «صدق الرحمٰن وكذب الشيطان» حتى كانت الفرنج تصل إليه، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف؛ ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى فقال له: إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون؟ فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربي عن فرسه وقال له: اركب هذه الحرة فإنها لا ترضى بعار، فلعل الله ينجيك عليها فإن في سلامتك الخير كله. فركبها الناصر، وركب العربي جواده، وتقدم أمامه في كوكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم، والفرنج في أعقابهم تقتلهم ونادى منادي الفنش يومئذٍ: ألا لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره؛ فحكمت سيوف الفرنج في المسلمين إلى الليل.

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة. فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذٍ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رمق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول إليه إن شاء الله.

قال ابن الخطيب: لما لحق الناصر بإشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت إليهم الظنة. وقال ابن خلدون: ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من إشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك.

وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفاً من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر، فبايعه كافة الموحدين؛ وخطب له على جميع منابر المغرب والأندلس في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وستمائة.

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطبحاً ومغتبقاً إلى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموماً بتدبير وزرائه عليه في ذلك، قال: وكانت وفاته يوم الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور.

وقال ابن خلكان: تقول المغاربة إن الناصر رحمه الله كان قد أوصى إلى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم، ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة أنا الخليفة؛ فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك.

قلت: الصحيح في وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب في رقم الحلل قال: «ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله، ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع[1] والبقاء له وحده.

---

(1) وذكر صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب وهو أبو محمد عبد الواحد المراكشي أنه اختلف في سبب وفاته وأصلح ما بلغه في ذلك أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة 610 ودفن يوم الخميس، صلى عليه خاصة الحشم اهـ.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة، ولقب بالمنتصر بالله؛ وغلب عليه الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيخة الموحدين، فقاموا بأمره؛ واستبدوا عليه؛ وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إفريقية لصغر سن المنتصر، ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذٍ، واشتغل المنتصر عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب.

وعقد للسادات على عمالات ملكه؛ فعقد للسيد أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ـ ويلقب بالظاهر ـ على فاس وأعمالها، وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره. وعقد لعمه السيد أبي إسحاق بن المنصور على إشبيلية وما أضيف إليها، ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالها؛ ولعمه أبي محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالها. وبعث معه الشيخ أبا زيد بن يرجان وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم.

وفي دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم، وأشرفت دولتهم على الهرم؛ واستولى الفنش على المعاقل التي أخذها المسلمون؛ وهزم حامية الأندلس في كل جهة؛ واستبدت السادة بالأطراف، والتاثت الأمور بالأندلس والمغرب أجمع. أما الأندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حماتها؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب.

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة؛ وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها، فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلائه

من الحامية، واكتسحوا بسائطه بالغارات؛ وانحازت رعاياه إلى المعاقل والحصون؛ وكثرت الشكايات بهم إلى المنتصر؛ وهو مقيم بمراكش فكتب إلى السيد أبي إبراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم، فخرج إليهم وهو ببلاد الريف؛ فأوقعوا به وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم، وعاد السيد مفلولاً إلى فاس؛ وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة؛ فسميت السنة سنة المشعلة، وكانوا قد أسروا السيد أبا إبراهيم ثم عرفوه فأطلقوه. ثم صمدت بنو مرين بعدها إلى تازا ففلوا حاميتها؛ وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد إن شاء الله.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الأندلس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب؛ لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج إليه جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس؛ وكان ذلك بأمر المنتصر، فساروا يؤمون العدو؛ فلم تقع عينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الأدبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم، وخشعت نفوسهم له. ولما فروا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع الفنش إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين.

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة توفي صاحب إفريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص؛ فبايع الموحدون بإفريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمٰن، فقام بالأمر وأطفأ النائرة؛ وأفاض العطاء ومهد النواحي ورتب الأمور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الأكبر مكانه، وهو إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن. فقدم إفريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة، ووالى

الهزائم على ابن غانية الثائر بإفريقية حتى شرد إلى الصحراء، وأبو العلاء هذا هو الذي بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنها، وهو الذي بنى برج الذهب بإشبيلية أيام ولايته عليها في دولة أبيه، وأقام أبو العلاء بإفريقية إلى أن توفي بتونس منها في شعبان سنة عشرين وستمائة.

واستولى على إفريقية بعده ابنه أبو زيد بن إدريس؛ وساءت سيرته في الناس، وأقام على ذلك إلى دولة العادل عبد الله بن المنصور صاحب مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص.

ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، وتداول ملك إفريقية بنوه من بعده؛ واستبدوا بها واقتطعوها عن نظر بني عبد المؤمن أصحاب مراكش، فلم تعد إليهم بعد.

وأما يوسف المنتصر فإنه استمر مقيماً بمراكش على لذاته إلى أن توفي، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعاً باتخاذ الحيوان واستنتاجه؛ فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش، ويحمل بعضها على بعض للتناسل؛ فخرج ذات يوم للتطوف على تلك البقر والنظر إليها، فتوسط قطيعاً منها وقد ركب فنشيا فأنكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته في صدره طعنة أتت عليه من حينه، وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشرة من ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف إلا حملاً من جارية له.

قال ابن خلكان: لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً من المنتصر ولا أبلغ في المخاطبة، إلا أنه كان مشغوفاً براحته؛ فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنتصر في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور.

قال ابن أبي زرع: بايعوه على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذٍ في سن الشيخوخة، وكان عالماً فاضلاً متورعاً؛ فاستقام له الأمر نحو شهرين، وخطب له في جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية؛ فإن ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان والياً عليها، وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن يرجان المعروف بالأصفر؛ وكان من دهاة الموحدين، وكان المنصور رحمه الله إذا رآه يستعيذ بالله من شره؛ ويقول: ماذا يجري على يديك من الفتن يا أصفر؛ وكان من خبره أنه لما بويع المخلوع أمر بإطلاق ابن يرجان لأنه كان محبوساً على ما عند ابن خلدون، فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك، وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغربه إلى ميورقة، فلاذ ابن يرجان حينئذٍ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية، ونزل منه منزلة الوزير وأغراه بالتوثب على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وقال له فيما قال: إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر، ولك الرأي وحسن السياسة والحزم. ولو دعوت الموحدين إلى بيعتك لم يختلف عليك اثنان.

وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الأندلس يومئذٍ كلهم بنو المنصور، فأصغى إليه عبد الله هذا؛ وكان متردداً في بيعة عمه؛ فبرز إلى مجلس حكمه؛ واستدعى من بمرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم إلى بيعته؛ فبايعوه وتسمى بالعادل؛ وكان إخوته أبو العلاء

الأصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرّاً، وكان أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبايع للعادل، وزحف مع أبي العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى إشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع، فدخل في دعوتهم؛ وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع، وخرج العادل من مرسية إلى إشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يرجان، وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع؛ وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة لكراهيتهم له، وجرت خطوب أفضت إلى خلع عبد الواحد وقتله.

وفي القرطاس: أن عبد الواحد العادل كتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد، ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة، فسارعوا إلى ذلك، ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل إلا أن يخلع نفسه ويبايع للعادل؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فخرجوا عنه، ووكلوا بالقصر من يحفظه، وكان ذلك يوم السبت الحادي والعشرين من شعبان سنة إحدى وعشرين وستمائة.

فلما كان يوم الأحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والأشياخ فأشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل؛ ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات؛ وانتهبوا قصره واستولوا على أمواله وحريمه، فكان عبد الواحد هذا أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن، وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبني العباس؛ فكان فعلهم ذلك سبباً لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم. والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وستمائة.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله

بويع له البيعة الأولى بمرسية من بلاد الأندلس منتصف صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة. وتلقب بالعادل في أحكام الله؛ ثم خلص له الأمر وبايعه كافة الموحدين؛ وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة.

وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي كما ذكرناه آنفاً، وكان والياً على بلنسية وشاطبة ودانية؛ ولما رأى السيد أبو محمد البياسي أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف إليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الأوسط وتلقب بالظافر؛ وإنما دعي البياسي لقيامه من بياسة؛ فوصلت بيعة الموحدين من مراكش إلى العادل ومعها كتاب أبي زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هنتانة بقصة المخلوع وما كان من أمره، فصادف وصولها هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الأصغر وهو إدريس بن المنصور في جيش كثيف إلى البياسي فحاصره ببياسة. ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل حتى إذا أفرج عنه أبو العلاء عاد إلى النكث؛ وبعث إلى الفنش يستنصره على العادل؛ وضمن له أن ينزل له عن بياسة وقيجاطة؛ فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج. فوجه إليه الفنش بجيش من عشرين ألفاً. ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد إشبيلية حتى إذا دنا منها خرج إليه السيد أبو العلاء الأصغر - وهو الذي دعي بعد بالمأمون - فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسي والفرنج على محلته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك.

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشي أن يتفاقم داء البياسي ويمتد عباب فتنته إلى مراكش؛ فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر إلى العدوة. ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك؟ فأنشده:

حال متى علم ابن المنصور بها جاء الزمان إليّ منها تائبا

فاستحسن ذلك منه وولاه إفريقية. وهذا البيت لأبي الطيب المتنبي وإنما تمثل به عبو لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به.

وانتهى العادل في سيره إلى سلا فأقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا، وكان لابن يرجان عناية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط، فتثاقل جرمون بن عيسى أمير سفيان عن الوصول إلى العادل، ثم بادر العادل إلى مراكش وقاسى في طريقه إليها من العرب شدائد، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن يرجان، ففسد باطنه وسعى في إفساد الدولة، وغلب أبو زكريا بن الشهيد شيخ هنتاتة؛ ويوسف بن علي شيخ تينملل على أمر العادل. ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة، وعاثوا في نواحي مراكش؛ وخربوا بلاد دكالة فخرج إليهم ابن يرجان فلم يغن شيئاً، فأنفذ إليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص فانهزم وقتل، واضطربت الأحوال على العادل؛ وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة والعرب؛ فاتفقا أيضاً على خلع العادل واضطربت الأمور.

ولما انتهى إلى أبي العلاء صاحب الأندلس خبر أخيه العادل وما هو فيه بمراكش من الاضطراب دعا لنفسه بإشبيلية فبويع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس؛ وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسي، وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة.

ولما تمت بيعته كتب إلى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الأندلس والموحدين الذين بها عليه؛ ووعدهم في ذلك ومناهم، فكان منهم بعض توقف؛ ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل؛ فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع؛ فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هناك وقالوا له: لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع. فقال: اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلا أمير المؤمنين. فوضعوا عمامته في عنقه وخنقوه ورأسه في الخصة حتى فاظ؛ وكان خيراً فاضلاً رحمه الله؛ وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة. وكتبوا بيعتهم إلى أبي العلاء المأمون؛ وبعثوا بها إليه مع البريد؛ ثم بدا لهم في بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس؛ وطما عباب الفتن بهما وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة المامون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه بإشبيلية وبايعه أهل الأندلس والموحدون بالحضرة كما قلنا، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلموه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد المخلوع؛ ثم أخيه عبد الله العادل، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر كما يقل عذاره، وإنما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم، فإن سنه يومئذٍ كانت ستة عشر سنة؛

فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا: قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته؛ وتأخر قدوم المأمون إلى مراكش وبقي بالأندلس لأسباب يأتي شرحها؛ وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء، وجهز جيشاً من الموحدين والجند إلى قتال الخلط وهسكورة؛ وهم يومئذٍ في طاعة المأمون، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولاً إلى مراكش، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراكش واطلع على ذلك أيضاً أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة؛ ثم اضطربت الأحوال على يحيى وانتقضت البلاد، وغلت الأسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب؛ واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره، واقتضوا جبايته ونبغت الثوار في الأقطار على ما نذكره.

ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غمارة

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبي، وكان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس؛ وكان ينتحل صناعة الكيمياء، فكان يلقب بأبي الطواجين لكثرة الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه. وتلقن ذلك عنه ابنه هذا، ثم ارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد بأحوازها، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعاً من الشعبذة فكثر تابعوه، ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا إليه عهده؛ وزحفت إليه عساكر سبتة ففر عنهم؛ ثم قتله

بعض البرابرة غيلة بوادي لاو بين بلاد بني سعيد وبلاد بني زيات؛ وابن أبي الطواجين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد أن شاء الله.

أخبار الثوار بالأندلس وما آل إليه أمر الموحدين بها

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه، وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كل في عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الأندلس عليهم، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدين لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين وستمائة؛ وجهز إليه والي مرسية يومئذٍ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم، وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها؛ وخطب للخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رقم الحلل عند ذكره لبني هود هؤلاء:

وكان من أعقابه الأمير محمد بن يوسف الأخير
وكان باسلاً شديد البأس وبايع المستنصر العباسي

ثم زحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسي المتقدم ذكره من شاطبة وكان والياً بها كما مر، فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة واستجاش بالمأمون، وهو يومئذٍ بإشبيلية؛ فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم، واتبعه المأمون إلى مرسية فحاصره مدة. وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية. ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن

مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة؛ وكان بني مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوه؛ فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فأبى، فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة، ودخل في دين النصرانية والعياذ بالله؛ وبايع أهل شاطبة لابن هود؛ ثم تتابعت بلاد الأندلس على بيعته، ودخل في طاعته أهل قرطبة وإشبيلية بعد رحيل المأمون عنه إلى مراكش؛ ولم يبق للموحدين بالأندلس سلطان.

ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة؛ ودعا لأبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية. ثم دخل في طاعته أهل قرطبة؛ وتنازع ابن الأحمر وابن هود رئاسة الأندلس، وتجاذبا حبل الملك بها؛ وكانت خطوب استولى لطاغية فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقر قدم ابن الأحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره.

قدوم أبي العلاء المأمون بن المنصور من الأندلس إلى مراكش وما اتفق له في ذلك

قد تقدم لنا أن الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون، وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر؛ فوصلت بيعة الموحدين إلى المأمون، وهو يومئذٍ بإشبيلية، فسر بها وأمر بإقرائها على منابر الأندلس، ثم أخذ في التجهيز والحركة إلى مراكش دار ملكهم؛ فسار حتى إذا وصل إلى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته، وبايعوا ابن أخيه يحيى. فوجم لذلك وأطرق ملياً ثم أنشد متمثلاً بقول حسان رضي الله عنه:

لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله[1] أن يبعث له جيشاً من الفرنج يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكش إذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم، وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك؛ فأسعفه المأمون في جميع ما طلبه منه.

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلاف أحواله بها كما قلنا ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فاراً بنفسه إلى تينملل؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة؛ ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها والياً يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم. وجددوا له البيعة؛ وكتبوا إليه يخبروه بفرار يحيى إلى الجبل؛ ويرغبون إليه في القدوم عليهم، وكتب إليه أيضاً هلال بن حميدان أمير الخلط؛ واستمر يحيى معتصماً بالجبل أربعة أشهر، ثم بدا له فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذي قدمه الموحدين بها؛ واستمر بها نحو سبعة أيام، ثم خرج إلى جبل جليز وعسكر به؛ وأقام منتظراً لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش. ثم بعث صاحب قشتالة إلى المأمون جيشاً من اثني عشر ألفاً برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة، وكان وصولهم إليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمائة؛ ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في ذي القعدة من السنة المذكورة، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها. فأراح بسبتة أياماً ثم نهض إلى مراكش حتى إذا دنى منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة؛ فانهزم يحيى

(1) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتاب «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبي الحسن المريني.

وفر إلى الجبل وقتل كثير من جيشه.

ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون، وصعد المنبر بجامع المنصور ـ وكان علامة أديباً بليغاً ـ فخطب الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: لا تدعوه بالمهدي المعصوم وادعوه بالغوي المذموم؛ ألا لا مهدي إلا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحس. ولما انتهى إلى آخر خطبة قال: معشر الموحدين لا تظنوا أني أنا إدريس الذي تندرس دولتكم على يده، كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله.

ثم نزل وأمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سننه التي ابتدعها للموحدين وجرى عليها سلفهم؛ ونعى عليها النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته في أذان الصبح: ولله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي، وأمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل إلى إبقائه، وأبدأ في ذلك وأعاد.

ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثاً؛ ثم خرج في اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه؛ فقال لهم يا معشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد. وأكثرتم في الأرض الفساد؛ ونقضتم العهود وبذلتم في حربنا المجهود، وقتلتم الإخوان والأعمام؛ ولم ترقبوا فيهم إلاً ولا ذمام. ثم أخرج كتاب بيعتهم الذي بعثوا به إليه؛ واحتج عليهم بنكثهم الذي نكثوا بعده؛ فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط في أيديهم والتفت إلى قضية المكيدي ـ وكان بإزائه قد قدم معه من إشبيلية ـ فقال له: ما ترى أيها القاضي في أمر هؤلاء الناكثين؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:10] الآية. فقال المأمون: صدق الله العظيم فإنا نحكم فيهم بحكم الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة:45] ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى أنه أتي بابن أخت له صغير يقال إن سنه كان ثلاث عشرة

سنة وكان قد حفظ القرآن، فلما قدم للقتل قال له: «يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث» قال: ما هن؟ قال: «صغر سني؛ وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز» فيقال إن المأمون نظر إلى القاضي كالمستشير له وقال له: «كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟» فقال القاضي: «يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فأمر به فقتل رحمه الله، ثم أمر بالرؤوس فعلقت بدائر سور المدينة.

ذكر ابن أبي زرع أنها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمن قيظ فنتنت بها المدينة وتأذى الناس بريحها، فرفع إليه ذلك فقال: «إن هٰهنا مجانين وأن تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم إلا بها. وإنها لعطرة عند المحبين ونتنة عند المبغظين! ثم أنشد:

أهل الحرابة والفساد من الورى	بالقطع والتعليق في الأشجار
ففساده فيه الصلاح لغيره	يعزون في التشبيه للذكار
فرؤوسهم ذكرى إذا ما أبصرت	فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
وكذا القصاص حياة أرباب النهى	والعدل مألوف بكل جوار
لو عم حلم الله سائر خلقه	ما كان أكثرهم من أهل النار

وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين أنست فتكة الحارث بن ظالم؛ والبراض الكناني والحجاف بن حكيم، وهي التي استأصلت جمهورهم؛ وأماتت نخوتهم، وأذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضربوا بها نواقيسهم. وكانت الكنيسة في الموضع المعروف بالسجينة.

وقبض على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه إلى هلال بن حميدان الخلطي فحبسه حتى افتدي منه بستة آلاف دينار.

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر؛ ثم نهض إلى الجبل لقتال

يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين، وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة. فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة، فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة آلاف رأس.

وفي هذه السنة استبد الأمير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية وخلع طاعة الموحدين.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون إلى سائر البلاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين. ونفاهم عنها ابن هود لثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه.

وفي سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد؛ فاتصل الخبر بالمأمون فخرج إليه، وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاثه قد حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها؛ فسار إليهم وحسم مادة فسادهم؛ وعاد إلى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شيء، وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب؛ ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى؛ ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التي بنيت بها وقتلوا كثيراً من يهودها وسبوا أموالهم، ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به إلى الجبل.

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة، فارتحل عنها مسرعاً إلى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة؛ ولما أبعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها إلى الأندلس فبايعه ابن هود وأعطاه سبتة؛ فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها إلى أن مات.

وانتهى الخبر إلى المأمون وهو في طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة، فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفاً ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار

سبتة، وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة.

وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة، افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين؛ فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر.

وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده، قالوا ولولا أن الأمور قد استحالت إلى ما ذكر لكان المأمون موافقاً لأبيه المنصور في كثير من الخلل؛ ومتبعاً سننه في الأحوال.

وكان المأمون فصيح اللسان؛ فقيهاً، حافظاً للحديث ضابطاً للرواية، عارفاً بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، مقدماً في علم اللغة والعربية والأدب وأيام الناس؛ كاتباً بليغاً حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ، وسنن أبي داود؛ وكان مع ذلك شهماً حازماً مقداماً على عظائم الأمور؛ ولي الخلافة والبلاد تضطرم ناراً. والممالك قد توزعتها الثوار؛ فكان المأمون إذا فكر في حال الثوار وما آل إليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلاً:

تكاثرت الظبا على خداش فما يدري خداش ما يصيد

يشير إلى حاله معهم؛ وأنه لم يدري ما يتلافى من ذلك والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن المأمون ابن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد.

قال ابن أبي زرع: بويع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة أبيه وهو الأحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة، وسنه يومئذٍ أربع عشرة سنة؛ وكان الذين أخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفياني؛ وشعيب بن أوقاليط الهسكوري، وفرنسيل قائد جيش الفرنج، فإنه لما مات المأمون كتمت جاريته بعد موته واسمها حباب، وكانت فرنجية الأصل؛ ومن دهاة النساء

وعقلائهن وهي أم الرشيد؛ فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه؛ ولأن أهل الحل والعقد من الموحدين قد أتت عليهم فتكت المأمون، فجاؤوا إليه فأعلمتهم بموت الخليفة، ورغبت إليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالاً جمة، ووعدتهم مع ذلك أنهم إذا فتحوا الحضرة - وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا - تجعلها لهم فيئاً؛ فبايعوه، وأخذوا البيعة له على سواهم. فبايع الناس طوعاً وكرهاً خوفاً من سيوفهم.

ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار إلى مراكش؛ وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئاً، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم.

واستخلف يحيى على مراكش أبا سعيد بن وانودين، والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل أكثر من معه، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار.

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها؛ وكان قد وصل في صحبة عمه السيد أبو محمد سعد بن المنصور؛ فحل من تلك الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن أوقاريط الهسكوري صحبة أولاد المأمون الذين كانوا بإشبيلية، ونفاهم ابن هود عنها وكان ابن أوقاريط هذا منحرفاً عن المأمون أيام حياته فتذمم بصحبة هؤلاء الأولاد وقدم على الرشيد فتقبله؛ واتصل بالسيد أبي محمد وحسنت منزلته لديه.

ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن أوقاريط بقومه ومعتصمه؛ وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر؛ واستنفر له قبائل الموحدين؛ ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة؛ واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء إدريس، وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم؛ ولحق يحيى ببلاد سجلماسة،

وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته؛ وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوي؛ وجاء الباقون على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وسننه فأعيدت. واطمأنوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الأحوال في هذه الأيام؛ إلى أن كان ما نذكره.

فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش

كان مسعود بن حميدان كبير الخلط قد أغراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلاً ببأسه وكثرة جموعه، يقال إن الخلط كانوا يومئذٍ يناهزون اثني عشرة ألف فارس سوى الرجل والأتباع والحشود، فمرض مسعود في الطاعة وتثاقل عن الوفادة إلى الحضرة.

ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ في السعي للفرقة والشتات بينهم، فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه؛ وصرف عساكره إلى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب؛ واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضرة؛ وقدم معه معاوية عم عمر بن أوقاريط، فقبض على معاوية وقتل لحينه، واستدعى الرشيد ابن حميدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى خمسة وعشرين من أصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتئذٍ بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة في نفسه منهم.

ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان؛ وأجلبوا على سائر النواحي؛ وأعلنوا بدعوة يحيى بن الناصر، واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء، وداخلهم في ذلك عمر بن أوقاريط؛ وزحفوا لحصار مراكش، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان؛ فدافع ابن أوقاريط بجموعه في تلك العساكر فانهزموا؛ وأحيط بجند النصارى فقتلوا، وتفاقم الأمر بالحضرة وعدمت الأقوات، واعتزم الرشيد

على الخروج إلى جبل الموحدين؛ فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكها، واشتد الحصار على مراكش؛ واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فنهبوها وساء أثرهم فيها؛ واضطربت أحوال الخلافة بها، وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حافة؛ وهذه الفتن كانت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها

وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنويون سبتة بأجفان لا تحصى؛ ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصار، واستمروا على ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها؛ فلم يقدروا منها على شيء؛ ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج في الإفراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا؛ وأقلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم.

عود الرشيد إلى مراكش وفرار يحيى عنها إلى بني معقل ومقتله بهم

وفي هذه السنة أعني سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة يقصد مراكش؛ وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه؛ وعبروا وادي أم الربيع؛ وبرز إليه يحيى في جموعه. والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم؛ ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً؛ وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس والأخذ بدعوته؛ فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة ابن أوقاريط، فاستقر هناك ولم يرجع إليهم قولاً، فعلم الخلط أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلص من الورطة.

وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه، وسار إلى فاس وأقام بها أياماً، وفرق في فقهائها وصلحائها أموالاً ورباعاً مغلة. وسرح الوزير السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالهما.

وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصرة واشتطوا عليه في المطالب فأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازا؛ وسيق رأسه إلى الرشيد بفاس؛ فبعثه إلى مراكش وأوعز إلى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم، وقائد ابنا عامر شيخا بني جابر فقتلهم، وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة.

وكان ابن أوقاريط لما فصل ابن هود صاحب الأندلس أقام عنده إلى هذه السنة فركب البحر في أسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا ـ وبها يومئذٍ السيد أبو العلاء صهر الرشيد ـ فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل.

وفي سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل إشبيلية للرشيد، ونقضوا طاعة ابن هود؛ وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد؛ ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبتة، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد، وقدموا على الحضرة؛ وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم، وانصرف وفد إشبيلية وسبتة راضين.

واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحيائهم، ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن أوقاريط، وكان أهل إشبيلية قد بعثوا به إليه فقطع دابرهم.

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الثائر بالأندلس على ابن هود وكان قد بايع أولاً أبا زكريا الحفصي صاحب إفريقية ثم بدا له فرد البيعة إلى الرشيد.

استيلاء العدو على قرطبة

وفي هذه السنة كان استيلاء العدو ـ دمره الله ـ على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ودار مملكتها. وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به، وزحف إليهم الرشيد فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه. وأقام في محاربتهم سنتين ورجع عنهم إلى الحضرة، فاشتد عدوانهم بالمغرب؛ وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الإتاوة لبني حمامة منهم، واتصل أغلبهم في نواحيها.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف، ووقف الرشيد على كتب بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت إلى الرشيد فقتله.

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد رحمه الله غريقاً في بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، ويقال إنه أخرج من الماء حيّاً فحم لوقته ومات.

وذكر أبو عبد الله أكنسوس أن غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التي بدار الهناء من أجدال اليوم، قال: وكان يقال لها البحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشؤوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد
علي بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك الرشيد بويع أخوه لأبيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين، وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن. ويحيى بن عطوش، وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم، واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم؛ واستظهر بجموعهم على أمره، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه؛ وكان ضرر بني مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل، فخرج السعيد سنة اثنتين وأربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب، فانتهى إلى سجلماسة، وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجي قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمدة من أرض فاس.

وعقد المهادنة مع بني مرين وقفل إلى مراكش، فكانت هدنة على دخن فلم يلبث إلا يسيراً حتى عاود النهوض إليهم سنة ثلاثة وأربعين بعدها، واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبي إبراهيم أخا الوزير المذكور آنفاً على مراكش، واستعمل أخاهما السيد أبا حفص وهو المرتضى على سلا، وسار نحو بني مرين؛ فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى إذا تراءى الجمعان وتهيأ القوم للقاء خالف كانون بن جرمون إلى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها، فرجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففر كانون عنها فاعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثير من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية، ولحق كانون ببني مرين؛ ورجع السعيد إلى الحضرة.

ثم تقدم الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني إلى مكناسة فضايقها؛ وخطب طاعة أهلها، فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه.

وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية، وكان استبد على بني عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيهم بمراكش؛ فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الأمير أبي بكر بن عبد الحق. فإنه كان يدعو إليه في أول أمره، وكذا أخوه السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بأمره عندما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد إن شاء الله.

وفي هذه السنة بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا الحفصي أيضاً، وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة إليه بهدية مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى، وقبل هذه المدة بيسير كان الأمير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي؛ وهو جد ملك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط؛ فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انثالت عليه من سائر الجهات؛ وحدثته نفسه بالتوثب على كرسي الخلافة بمراكش، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه؛ وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلا جدولاً من بحرهم وفرعاً من دوحتهم؛ والأمر كله لله.

نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغربين ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آل إليه الأمر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الأمير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الأقطار.

وكان السعيد شهماً حازماً يقظاً بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين في تثقيف أطرافها وتقويم أودها؛ وحرك

هممهم؛ وأثار حفائظهم، وأراهم كيف اقتطع عنهم الأمر شيئاً فشيئاً؛ فابن أبي حفص اقتطع إفريقية؛ ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية، وابن هود اقتطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضاً، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا إلى تملك أمصاره، وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الأمر؛ وتنقرض الدولة، فتذامروا وتداعوا إلى النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود، وجهز العساكر وأزاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وما يليه، واحتشد كافة المصامدة.

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً؛ ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثاً.

ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتمييزها، فخرج الأمير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلاً وحده يتجسس الأخبار فأشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به؛ فعاد إلى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد، وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التي كان الأمير أبو بكر أنزلهم بها؛ واجتمعوا عليه بحصن تازا، وطامن بلاد الريف.

وتقدم السعيد إلى مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو، وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز، وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤوسهم الألواح وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم.

ثم ارتحل إلى تازا في أتباع بني مرين، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق إلى بني يزناسن ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والدخول في أمرهم؛ فبعث ببيعته إلى السعيد وهو يومئذٍ بتازا مع جماعة من وجوه بني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف؛ فسأله وفدهم أن يستكفي بالأمير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان، وقد كتب إليه الأمير أبو بكر أيضاً

بذلك يقول: «يا أمير المؤمنين ارجع إلى حضرتك وقوني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان»؛ فاستشار السعيد وزراءه فقالوا: «لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه»، فكتب إليه السعيد بأن يبعث إليه جماعة من قومه يعسكرون معه، فأمده الأمير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بني مرين وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان.

وعند ابن أبي زرع أن السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهنالك أتته بيعة بني مرين؛ قال: ثم ارتحل السعيد عن فاس في الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة؛ وخسف القمر تلك الليلة خسوفاً كلياً؛ وأصبح السعيد غادياً يريد تلمسان؛ فلما ركب فرسه انكسرت لؤلؤة المنصوري فتطير ونزل؛ ولم يرتحل إلا في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور.

ولما سمع يغمراسن بإقبال السعيد إليه خرج من تلمسان في عشيرته وقومه من سائر بني عبد الواد، وتحملوا بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها؛ ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغراسن مؤدياً للطاعة وساعياً في مذاهب الخدمة ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعتذراً تخلف يغمراسن عن الوصول إلى حضرة السعيد؛ فلج السعيد في شأنه ولم يعذره، وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه؛ وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ، وردوا الفقيه عبدون إلى يغمراسن ليستقدمه فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره حتى أناخ بها في ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ركب مهجراً في وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليتطوف بالقلعة، ويتقرى مكامنها؛ فبصر به فارس من بني عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه؛

فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان، وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه، وعمد يعقوب بن جابر إلى وزيره يحيى بن عطوش فقتله؛ ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج، وعنبراً من الخصيان؛ وقائد جند النصارى، وهو أخو القمط، ووليداً يافعاً من ولد السعيد، ويقال: إنما كان ذلك يوم عبى السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس، فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه؛ فتواثب عليه هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه. وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

وانتهى الخبر إلى المحلة فارتجت وماجت، وأخذ أهلها في الفرار؛ وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع على الأرض، فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه! والسعيد رحمه الله واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى إن فاظ، وانتهب المعسكر بجملته.

واستولى بنو عبد الواد على ما كان به من الأخبية الحسنة والفازات الرفيعة، واختص يغمراسن بفسطاط السلطان، فكان له خالصة دون قومه؛ واستولى على الذخيرة التي كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته؛ وإنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمٰن الداخل، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم صار إلى خزائن الموحدين من يد لمتونة.

قال ابن خلدون: وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان، وذلك عند غلب السلطان أبي الحسن المريني على تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اهـ.

وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثماني وفيه مخالفة لبعض ما هنا، وسيأتي لنا في دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الأمر.

ومن الذخائر التي صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم

من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصبائه. وكان يسمى بالثعبان.

ثم صار إلى بني مرين أيضاً إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعة من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لأنفسهم ويعتدونه من ذخائرهم.

ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفعه على أعواده، فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه. ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع، وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهن، فألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعي حقوق الملك. وأما أهل محلة السعيد فإنهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد، وقفلوا قاصدين مراكش.

واتصل الخبر بالأمير أبي بكر بن عبد الحق وهو يومئذٍ ببني يزنسن، وقدمت عليه الحصة التي كان وجهها مع السعيد، فتحقق الخبر؛ وانتهز الفرصة في الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم، ثم جد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها؛ ولحق فل الموحدين بمراكش، فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما توفي أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى والياً من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش

وعقدوا له البيعة وبعثوا بها إليه، ونهض هو متوجهاً إلى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضاً واستقام أمره وتلقب بالمرتضى، وعقد ليعقوب بن كانون على بني جابر؛ ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته وقبض على حاشية السعيد. ثم وصل أخوه السيد أبو إسحاق الذي كان وزيراً للسعيد من قبل ناجياً من وقعة تامزردكت آخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره أيضاً وأسند إليه أمره واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بني مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها؛ فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس.

ولأول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على إشبيلية إحدى قواعد الأندلس فإن طاغية قشتالة وهو الإصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة. وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحاً بعد منازلتها حولاً كاملاً وخمسة أشهر، وانتقل كرسي المملكة الإسلامية بالأندلس إلى غرناطة وذلك في دولة بني الأحمر.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الأمير أبو بكر المريني سلا ورباط الفتح، ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي بن زيان من قبيل بني مرين، وأغروه بقتال بني عبد الحق فأسعفهم. ولما انتهى إلى أمان إيملولين أشاع يعقوب بن جرمون السفياني قضية الصلح بينهما، وأصبح راحلاً وقد استولى الجزع على قلوب الجيش، فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال، ووصل المرتضى إلى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه.

وفي سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بني مرين.

وفي سنة إحدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى علي بن يدر

من بني باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها، واستخدم الشبانات وذوي حسان من عرب معقل، وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره، واستولى على بسائط السوس فوجه إليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض، ثم جاء أبو دبوس من بعد المرتضى فنهض إليه، وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت.

ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد إلى الحضرة. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بني يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله، وأرهف حده للعرب وسامهم الهضيمة، فزحفوا إليه وقتلوه في السنة المذكورة. ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته، واستمر ملكهم عليه إلى زمان السلطان أبي الحسن المريني فغلبهم عليه وانقرض أمرهم.

رجع إلى أخبار عمر المرتضى

وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة خرج أبو الحسن بن يعلو قائد المرتضى في جيش من الموحدين إلى تامسنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن شيخ بني جابر قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين.

وفي سنة ثلاث وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بني مرين المتغلبين عليها، واحتفل في الاحتشاد، وبالغ في الاستعداد، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والأغزاز وأهل الأندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بني بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بني مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون إلا غراراً، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض

الجنديين وجرى بين الأخبية، وجرى الناس خلفه ليأخذوه؛ فظن أهل المحلة أن بني مرين قد أغاروا عليهم؛ فركبوا خيولهم، وماج بعضهم في بعض؛ وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء.

واتصل الخبر بأبي بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما في محلة الموحدين من الأخبية والأثاث والسلاح والمال، ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش في جمع قليل من الأشياخ والإفرنج وأقام بها وأعرض عن بني مرين وتسلى عنهم سائر أيامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفاً.

واستبد أبو القاسم العزفي بسبتة واستتب أمره بها، وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زماناً إلى أن غلبهم عليها بنو مرين.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلماسة، وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكوا بمداخلة خديم له يعرف بمحمد القطراني، وشرط على الأمير أبي بكر أن يكون هو الوالي عليها فأمضى له شرطه، وأنزل معه بها جماعة من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى، واعتذر إليه؛ واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه إلا في أحكام الشريعة، وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة وبعض السادة للنظر في القضية؛ وقائداً من النصارى بعسكر للحماية، فأعمل القاضي ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني، وتولى الفتك به قائد النصارى؛ واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى.

واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل الأمير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا، فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين؛ فأجفلوا إلى وادي أم الربيع، واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادي فانهزمت عساكر الموحدين، وغدر بهم بنو جابر؛ وكان في مسيل الوادي كدى يحسر عنها

الماء فتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم الرجلين وذلك في سنة ستين وستمائة. وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن بدر الثائر بالسوس إلى سنة اثنتين وستين وستمائة. فأقبل الأمير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش، واتصل الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أياماً؛ هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه؛ وضرب إتاوة يبعث بها إليه في كل سنة، فرضي يعقوب وارتحل عنها؛ وقيل إن مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم.

انتقاض أبي دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحل بني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى، وأنه يطلب الأمر لنفسه؛ فأحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فأدركه عند مقدمه إلى فاس قافلاً من منازله مراكش، فأقبل عليه الأمير يعقوب وبالغ في إكرامه، فطلب منه أبو دبوس الإعانة على حرب المرتضى، وكان بطلاً محرباً وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال. فأمده الأمير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال؛ وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك، وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم - وأميرهم يومئذٍ علي بن أبي الخلطي - أن يكونوا معه يداً واحدة، فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا فكتب منها إلى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضى يدعوهم

إلى بيعته، ويعدهم ويمنيهم؛ فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه، وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة. ثم كتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخشن شيئاً، فإنا قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة. فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى إذا انتهى إلى أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيت في جيش من حاميتها، فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه.

وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه سفيان وبنى جابر وكبيرهم يومئذٍ علوش بن كانون السفياني، فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب. ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والأسوار خالية من الحامية والحراص. فقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها.

وقال ابن أبي زرع: إن دخول أبي دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، والصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهور بهذا الاسم إلى الآن، وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله؛ فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله بن محمد عذارى الأندلسي في كتاب «البيان المعرب عن أخبار المغرب»: أن بستان المسرة الذي بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين. قال: وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى، وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيوناً كثيرة».

قال ابن اليسع: وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاث وأربعين

وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش. اهـ.

قلت: ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون: «يا جردة مالحة، أين بت سارحة؛ في جنان الصالحة» في أسجاع غير هذه تجري على ألسنة الصبيان. والله أعلم.

رجع إلى خبر أبي دبوس

قال ابن أبي زرع: لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الأبواب دونه، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه.

ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجياً بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي، ثم انتقل منها إلى كدميوة؛ ثم إلى شفشاوة ثم لحق آخراً بآزمور ونزل على صهر له من بني عطوش كان والياً عليها من قبله. وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه آزمور. فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيراً به ومطمئناً إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده، وكتب إليه أبي دبوس يعلمه بشأنه؛ فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد اذخر شيئاً وحلف على ذلك ومت إليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه، ثم أغراه خاصته به فوجه إليه من قتله في الطريق وأتى إليه برأسه، وسار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان.

وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة. وكان رحمه الله ينتمي إلى التصوف والزهد والورع، وتسمى بثالث العمرين، وكان مولعاً بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلاً ولا نهاراً وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله.

وقال ابن الخطيب: كان المرتضى فاضلاً خيراً عفيفاً، مغمد السيف؛ مائلاً إلى الهدنة رحمه الله.

الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس

لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والأشياخ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها، وتلقب بالواثق بالله، والمعتمد على الله. وبذل العطاء ونظر في الولايات، ورفع المكوس عن الرعية.

ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنئه بالفتح، ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط له؛ فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة، وغلب عليه الكبر؛ وقال للرسول: قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته، ويبعث إليّ ببيعته حتى أقره على ما بيده وإلا غزوته بجنود لا قبل له بها، فعاد الرسول إلى الأمير يعقوب؛ وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبي دبوس فإذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الأمير يعقوب نكثه وغدره، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب.

فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجأ إلى أسواره، فتقدم الأمير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أياماً وعاث في نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما رأى أبو دبوس ما نزل به منه كتب إلى قريعه يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال

فاس والمغرب وأسنى له الهدية في ذلك، وأكد العهد في الموالاة والمناصرة، فأجابه يغمراسن إلى ذلك. نهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده على بدئه وسار إلى يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه على ما ينبغي وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعاً إلى مراكش في شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادي أم الربيع شن الغارات على النواحي، وبث السرايا في الجهات، وطال عيثه في البلاد، وأبدأ في ذلك وأعاد؛ حتى ضاقت صدور بني عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم. فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم، وأغروهم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه، ووعدوهم النصر من أنفسهم؛ فتحرك أبو دبوس لذلك؛ واشرأبت نفسه إلى القتال، فحشد وأبلغ، وبرز من الحضرة في جيوش ضخمة وجموع وافرة.

ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه، وكر راجعاً إلى جهة بلاده، يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها. وتمادى أبو دبوس في اتباعه حتى انتهى إلى وادي ودغفو، فكر عليه الأمير يعقوب والتحم القتال، وقامت الحرب على ساق؛ فلم تمض إلا ساعة حتى انهزم الموحدين، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش؛ فأدركته خيل بني مرين؛ وتناولته رماحهم، وخر صريعاً لليدين وللفم؛ واحتز رأسه وجيء به إلى الأمير يعقوب فسجد شكراً لله تعالى. ثم بعث به إلى فاس، وتقدم هو إلى مراكش فاستولى عليها في أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش إلى جبل تينملل، فبايعوا إسحاق بن أبي إبراهيم أخا المرتضى، فبقي ذبالة هنالك إلى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه؛ وجيء به إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبي الربيع ووزيره القبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً، وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الأرض، وذهبت محاسن مراكش يومئذٍ

بذهاب دولتهم والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة إحدى وستمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي دفين مراكش، وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ودفن خارج باب تاغزوت: وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضي أبي الفضل عياض.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان، قادراً على الكلام؛ لا يناظره أحد إلا أفحمه. حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه، وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً، يحسن إلى من يؤذيه؛ ويحلم عمن يسفه عليه برّاً باليتامى والمساكين، رحيماً بهم؛ يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات ويحض الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنثال عليه من كل جانب، فيفرقها على المساكين وينصرف. وكان له مع الله تعالى في التوكل عليه عقد أكيد، ومقام حميد؛ قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته.

حدث أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إبراهيم الخزرجي قال: بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة، وقال لي: إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش. فانظر مذهبه واعلمني به. قال: فجلست مع السبتي كثيراً إلى أن حصلت على مذهبه: فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد: هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود.

وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله عنه مقصوداً في حياته، مستغاثاً به في الأزمات، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة، ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود، وكونه حكمة في تأثر الوجود. له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة.

ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته، وانسحبت على مكانه عادة حياته، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى، وانقطاع الأماكن القصى، تحملهم أجنحة نياتهم؛ فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق، فيجدون الثمرة المعروفة، والكرامة المشهورة.

وفي سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس.

وفي سنة ست عشرة وستمائة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السلمي البلفيقي، ينتهي نسبه إلى العباس بن مرداس السلمي صاحب رسول الله ﷺ. كان أبو إسحاق رحمه الله من كبار العلماء العاملين، والزهاد المحققين، مثابراً على الاجتهاد والانقطاع إلى الله تعالى؛ وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الأندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير، وشاع ذكره هنالك؛ فوشوا به إلى الخليفة صاحب مراكش وهو يوسف المنتصر الموحدي، فكتب إلى عامله على المرية يأمره بتوجيهه الشيخ أبي إسحاق مكرماً غير مروع.

ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والأتباع دون الشيخ وأرادوا أن يحولوا بينه وبين العامل، فقال لهم الشيخ: «طاعة السلطان واجبة» ولما انتهى إلى مراكش ودخل على المنتصر هابه وجله وندم على ما كان منه إليه، ثم بالغ في إكرامه، وبعد ذلك مرض الشيخ أبو إسحاق وتوفي في السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وحضرها الأمراء والكبراء، وكسر العامة نعشه واقتسموا أعواده تبركاً به، وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها وبقرب ضريحه مسجد جامع ينسب إليه والعامة تقول جامع سيدي إسحاق بدون لفظ الكنية وليس كذلك.

وفي سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات كتابه المسمى «بالتشوف إلى رجال التصوف»، وذكر

فيه أنه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الأحياء غير أنه ذكر أن من جملة أولياء زمانه الذين كانوا قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفي أبا محمد صالح بن ينصارن بن عفيان الدكالي ثم الماجري نزيل ربط آسفي. قال: وهو الآن يفتر من الجهاد، والمحافظة على المواصلة والأوراد، ومن كلامه الفقير ليس له نهاية إلا الموت، قال: وحدثني عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر؛ وهو على سنن المشايخ الأول رضي الله عنه.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وقيل فيما بعد ذلك إلى سنة خمس وعشرين؛ وتوفي رضي الله عنه شهيداً بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هناك مشهور من أعظم مزارات المغرب.

وكان سبب شهادته أن محمداً بن أبي الطواجين الكتامي كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء، ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعه على ضلالته طغاة غمارة والبربر. فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ رضي الله عنه، لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم؛ فسول له الشيطان أنه لا يتم أمر مخرقته في تلك الناحية إلا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته في سحر من الأسحار إلى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعاً إلى محل عبادته وارتقاب فجره فعدوا عليه وقتلوه؛ ومن الشائع أنه ألقي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلى شواهق تردوا منها في مهاوي سحيقة تمزقت فيها أشلاؤهم ولم يرجع منهم خبر.

والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيراً ابن حيدرة واسمه علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وفي هذه السنة أيضاً استأسد العدو الكافر على المسلمين بالأندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والأسواق.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشرة ديناراً، وعم الجراد بلاد المغرب.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلي نحو مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاثة بلاطات وهدم دوراً كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الأندلس.

وفي سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القمح ثمانين ديناراً وخلت الأمصار من أهلها.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضاً وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس.

وفي سن ست وأربعين وستمائة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحبة وبالله تعالى العصمة والتوفيق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة بني مرين

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (ق)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)



